دكتور شوقى ضيف

الحب العذرى
عند العرب

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ضيف ، شوقى ، ١٩١٠ - ٢٠٠٥
، الحب العذرى عند العرب / شوقى ضيف
- ط ١ - القاهرة: دار المعارف ، ٢٠٠٩ .
١٤٨ ص ، ٣٠ سم
تدمك : ٢ - ٧٣٦٧ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١ - القصص العربية العاطفية - تاريخ ونقد .
أ - العنوان
.

ديوى ٨١٣.٠٨٥٩

رقم الايداع ١٩١٠٤ / ٢٠٠٩ ٢٤ / ٢٠٠٩ / ١

تصميم الغلاف
عزيزة مختار

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

الحب العذري
عند العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

دفعنى إلى جمع هذا القَصص المتصل بأحاديث الحب والصبابة من كتاب الأغانى وغيره من كتب الأدب العربى أنى وجدت الشباب يقبلون على قراءة قصص الحب إقبالا شديدا، غير مفرقين فى هذا الإقبال بين الجيد منه الذى يسمو بالأحاسيس والمشاعر والردئ الذى تطغى فيه الغرائز وتجمح الأهواء والعواطف فى غير تردد ولا خجل ولا استحياء.

وشبابنا معذور فى قراءته للنوع الأخير، بحكم رغبته فى الاطلاع، ولما فيه من غرابة وشذوذ كالشذوذ الذى يقرءونه فى قصص الجرائم والجنايات. وهم بذلك يقرءونه لهوا وقطعا لبعض أوقات الفراغ لا التماسا لمثل أعلى فى الحب ولا لغذاء روحى فيه يرتفع بهم عن صغائر الحياة. وإيمانا منى بحاجتهم إلى ما يقدم هذا الغذاء الرفيع لهم فى يسر وبساطة رأيت أن أعرض عليهم طائفة من قصص الحب العُذرى عند أسلافنا الذى يتحول فى بعض جوانبه إلى ضرب من التصوف المجرد من قيود المادة والحس، وهو حب حقيقى عاشه العرب فى عصورهم الإسلامية الأولى، حب ليس فيه إثم ولا جناح ولا فسوق ولا حرج ولا خيانة ولا عار ولا خطيئة ولا ريبة، إنما فيه الوفاء والصفاء والعفاف والطهر والنقاء. وفيه كان يحتفظ المحبون بكرامتهم مهما ألح عليهم

الحـــب ومهما اصطلوا من نيرانه واحتملوا مـــن خطوبه، حتى إنهم ليموتون شـــهداء فى ســـبيله، وفيه تحتفظ الفتاة بجلالها ووقارهـــا مع رقة العواطف ورهافة المشاعر ومع البر والحنان والإشفاق، ومع العشق والصبابة والهيام.

وقد صاغ أسلافنا هذا القصص العذرى النقى العفيف فى لغة ناصعة أروع مـــا يكون النصوع، ليس فيها أى إســـفاف، بل فيهـــا القوة والجزالة والمتانة والرصانـــة وهـــذا الجمال اللفظى الذى يحدث لذة محققـــة فى نفس القارئ. وأحاديثه لا تجرى نثرا خالصا ولا شعرا خالصا، بل تجمع بين الفنين فتمتع الأســـماع حين تصغى إليها كما تمتع القلـــوب والأفئدة. وإنى لأرجو مخلصا أن يجد فيها شـــباب القصاصين بيننا أمثلة يحتذونها فى أساليبهم النثرية، كما يجد فيها شـــباب الشعراء أمثلة ونماذج أخرى تلهمهم التعمق فى تصوير دقائق الحب وعواطفه وأهوائه دون التورط فى غرائز الجسد وأدرانه.

وإنى لشـــديد الأمل فى أن يغرى هـــذا القصص ومُثُله الخيِّرة العليا بعض شـــبابنا إلى تمثله والمعيشـــة فيه معيشـــة تدفعهم إلى إعادة كتابته فى قَصصٍ حديـــث، لا يقـــل عنه إمتاعا ولا جمالا، قصص يعتمـــد اعتمادا على عناصر الحـــب العذرى، مجســـدا لها فى معـــانٍ وخواطر، وأحيانـــا فى ضروب من الحوار، لم تكن تخطر جميعا لأسلافنا على بال. والله أسأل الهدى والتوفيق وأن يهيئ لنا جميعا من أمرنا رشدا.

شوقى ضيف

الحب

طبيعة الحب

لأفلاطون فى الحب محاورة مشـهورة تسمى المأدبة، أجرى فيها الحوار بين سـقراط وبعض معاصريه من الفلاسـفة والأطباء والشعراء والسوفسطائيين ورجال السياسة. والمحاورة فى مجموعها تصور مذهب سقراط فى الحب، وإن عبَّر كل متحاور عن وجهة نظره، وطبع كلامه بطوابع شخصيته الخاصة.

وقـد بـدأ أول المتحاورين، فقال: إن الحب أقـدم الآلهة وأفضلها، فهو الذى يبعث فى الإنسان الإحساس بالشرف وينمّى فيه الإيثار وروح التضحية. وفرَّق ثانى المتحاورين بين نوعين من الحب: نوع دنئ وضيع يلبى النزعات الجنسـية، وهو حب النساء والحب الشاذ للغلمان، ونوع نبيل شريف يخلو خلوا تاما من كل نزعة جسـدية وشـهوة بهيمية، وهـو الحب النقى البرئ ذلك الحب الذى يرتفع عن الصغائر ويتنزه عن الدنايا والذى يكسب صاحبه المعرفة والحكمة والفضيلة.

وواضح أن هذا الحب الروحى السـامى هو الحب الذى ينشأ بين الأستاذ وتلاميـذه أو مريديـه، وإن كان الباحثون قديما وحديثا لم يتنبَّهوا إلى ذلك، وظنوا ظنا فائلا أن المحاورة ترفع من الحب الشاذ، حب الشاب للشابِّ، مع أنها تندد فى غير موضع وبصراحة صريحة بهذا الحب، وتشـن عليه حربا شـعواء. وفى رأينا أن المحاورة جميعها دفاع عن سـقراط وتعلق شباب أثينا بآرائه وكلفهم بحواره الذى كان يملأ قلوبهم له حبا وحنانا، حتى زعموا أنه

يفسدهم وأنه يَزْدَرى قوانين الخُلق والعرف والدين، وحوكم محاكمة ظالمة أودت به وقضت على حياته. وقد ختمت المحاورة بدفاع قوى حار عنه، ألقاه تلميذه ألقبيادس، وقد صور فيه الحب العارم بينه وبين تلاميذه، وهو حب نقى برئ ممعن فى النقاء والبراءة، إذ كان سقراط نبيل النفس صافى الطبع كريم الخلق وكان الشباب يفتنون به فتوناً.

ويطنب ثالث المتحاورين – وكان طبيباً – فى التفرقة بين الحب الروحى الشريف والحب الحسى الوضيع، ويجعل من هذه التفرقة مبدأ عاما لا يطبق فى الحياة الإنسانية وحدها، بل يطبق فى كل الأعمال والفنون، ويقول: إن الحب أصل من أصول الكون، ويخرج به من عالم الحس المحدود إلى عالم العقل الواسع، ويجعله منبع كل سعادة وكل خير. أما رابع المتحاورين وهو أريستوفان، الشاعر الكوميدى المشهور فيسوق حديثه فى قصة خيالية فكهة، إذ يزعم أن الكائنات البشرية لم تكن فى أصل فطرتها كما هى اليوم: ذكرا وأنثى، بل كانت ذكرا، وأنثى، وخنثى تجمع بين خصائص النوعين، وكان كل فرد من هذه الأنواع الثلاثة مدورا على هيئة كرة، وله أربع أيد وأربع أرجل يمشى عليها جميعا، وله أربع آذان ووجهان، وهكذا تزدوج فيه بقية الأعضاء. وركب الغرور هذه الكائنات، فثارت فى وجه الآلهة، وغضب زيس الإله الأكبر، فشطر كل فرد فيها شطرين عقابا ونكالا لها، ومضت هذه الأشطار يبحث كل منها عن شطره رغبة فى الاتحاد به كما كان الشأن فى أصل النشأة، وهذا هو سبب الحب، فهو فى حقيقته شوق وتعطش إلى استرجاع السعادة المفقودة. ويتحدث المتحاور الخامس – وكان سوفسطائيا – فيصطنع ألفاظ السوفسطائيين الخلابة. ويقول: إن غاية الحب الجمال، ويضفى عليها أروع الخصال والفضائل، ويجعل زينته العفة وكبح النفس عن الشهوات، وثمرته الأنس والألفة والصداقة.

ويتكلم سقراط، فتشرئب إليه الأعناق وتصغى الآذان والقلوب، ويستهل كلامه بالثناء على ما سمعه من المتحاورين، ثم يسألهم – على طريقته – عن بعض ما عرضوا له من وجوه القول، ولا يلبث أن يروى لهم حديثا عن الحب سمعه من امرأة تسمى ديوتيما، وهنا نرى أفلاطون يتدخل، فيصف على لسان هذه المرأة الحب الأفلاطونى الذى ينسب إليه، وهو حب علوى أشبه ما يكون بتجربة المتصوفة عندنا، إذ يرتبط بنظريته المعروفة فى المثل وما كان يعتقده من أن أفراد كل نوع فى الموجودات الحسية والمدركات العقلية قد فاض عن حقيقة مثالية كلية مجردة، لها وجودها المطلق، وكل فرد من أفرادها يقترب منها ويبتعد بنسبة ما يستوفى من خصالها وكمالها.

وعلى هذا الأساس ترجع النفوس الإنسانية إلى نفس عليا واحدة، هى مثالها المطلق الذى انفصلت عنه، وهى لا تزال تحن إليه، فإذا رأت ظلاله فى شخص أقبلت عليه واتصلت به، فكان الحب. وهو عند أفلاطون فى درجات، أدناها الحب الجسدى الذى يتيح للإنسان شيئا من الخلود عن طريق ذريته، إذ يحل أولاده محله، فيخلد وجوده الفانى إلى حين. ويلى ذلك الحب الجنسى حب روحى، يعشق فيه المحب نفس المحبوب، وهو أرفع من حب الجسد وأكثر خلودا، إذ يلقن فيه المحب محبوبه خصال الفضيلة والحكمة، تلك الخصال التى يغرسها المحبوب بدوره فى معشوقه، وبذلك تكون لهذا الحب الروحى ذرية كذرية الحب الجسدى المادى، إلا إنها أكثر منها قيمة وجمالا. ولا نرتاب فى أن أفلاطون إنما يريد بهذا الحب الروحى العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وتلاميذه أو مريديه، وهو يجعلهم محبوبين له، يشيعون أفكاره وتعاليمه فى تلاميذهم أو معشوقيهم، فتصبح له بذلك ذرية يفوق جمالها جمال ذرية الحب الجسدى، إذ شتان بين ذرية الدم والجسد وذرية الروح والعلاقة الروحية.

وفـوق هذا الحب بدرجة أو درجات الحب الأفلاطونى المثالى الذى يرقى فيه العقل فوق العالم الحسـى ويرتفع عن العالم الروحى المقيد بالأشـخاص والنـاس إلى عالم الجمال المطلـق أو عالم المثال. وهذا الحب عند أفلاطون هو غايـة الغايات للفيلسـوف أو محب الحكمة، وهو الغايـة التى ليس وراءها غايـة، والفيلسـوف لا يصل إلى هذه الغاية إلا بعد مجاهـدات يعانيها، إذ لابـد له أن يتجاوز الفرد أو الشـخص الذى يتذكر بجسـده أو بروحه عالم المثـال إلى هذا العالم نفسـه، فيتأمل مثله الأعلى فيـه، ويحبه محبة تملك عليه نفسـه، حتى لا يسـتطيع عنه حولا، أو حتى يسـتغرق فيه استغراقا خالصا، وهو استغراق شبيه باستغراق الصوفية عندنا فى حب الذات الإلهية وكمالها المطلق.

وتنتهى المحاورة بحديث ألقبيادس عن سقراط، وهو يعترف فى حديثه بأن لسـانه يقصر عن تصوير ما أصاب به الشـباب الأثينى من فتون بحكمته المضيئة المشـرقة، وهى حكمة قوامها العقل فى أبدع صوره والخير فى أكرم مظاهـره والحب كأروع مـا يكون الحب بين الأسـتاذ وتلاميذه. وليس ذلك فحسب، فقد كان مثالا للعفة والشجاعة وأبلى بلاء مشكورا فى بعض حروب قومه. ومن أجل ذلك كله صبا إليه الشباب فى أثينا وكلفوا به أشد الكلف، وكـبرت كلمة يقولهـا خصومه إنه أفسـدهم، إذ كان نموذجا أعلى للمواطن الصالح والفيلسـوف الحق. وهذا إنما هو سطور أخيرة فى الدفاع عن سقراط. والمحـاورة كلها فـى رأينا دفاع عنـه وعن تعلق تلاميذه المشـروع به، وإن كان أفلاطـون قد ضمنهـا الحديث عن الحب الجسـدى الوضيع وعن حبه الأفلاطونى الرفيع.

ومهمـا يكـن فقد صورت المأدبـة الحب بجميع صوره المادية والمعنوية تصويرا رائعاً ، ولا نبالغ إذا قلنا إن جُلَّ ما قاله مفكرو العرب ومتفلسـفتهم

فـي الحب نجده صدى واضحا لما دار فى هـذه المأدبة وما قاله أفلاطون فى «الجمهورية» عن صوره الثلاثة: الجسـدى والروحـى والمثالى، وأنه يحدث لمشـاكلة بين اثنين فى أصل الوجود البشـرى. ويؤثر أن جماعة من المتكلمين وأهـل الآراء والنِحَـل اجتمعوا يوما بمجلس يحيى بـن خالد البرمكى وزير هارون الرشـيد، فطلب إليهم أن يتحدثوا فى الحب وطبيعته وسـببه، فقال علـى بن الهيثم: الحب ثمرة المشـاكلة، وقال أحد الخـوارج: إنه لا يكون إلا بازدواج النفسـين وامتزاج الشـكلين، وقال على بن منصور الشيعى: إنه لا يكون إلا من ناحية المطابقة والمجانسـة فى التركيب، وقال أحد شـيوخ المعتزلة: إنه نتيجة المشاكلة وغرس المشابهة.

ويـدور الزمن دورة ونلتقى بمحمد بـن داود الظاهرى الذى ألف كتابا فى الحب باسم «الزهرة» ونراه فيه يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قولـه: «الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منهـا أئتلف، وما تناكر منها اختلـف»، ثم ينقل عن بعض المتفلسـفة اليونانيين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة، ثم قطعها نصفين، فجعل فى كل جسـد نصفا، وكل جسـد لقى الجسـد الذى فيه نصفه كان بينهما عشق للمناسـبة القديمـة. والصلة واضحـة بين هذه الفكرة وما جاء على لسـان أريستوفان فى المأدبة.

ويدور الزمن دورة أخرى، فنلتقى بابن سـينا الفيلسـوف المعروف ونراه يفرد للعشـق رسـالة، يقول فيها إنـه نزوح إلى الكمـال المنبعث عن الكمال المحض، ويجعله نوعين: جسـدى ينشـأ عن القوة الشـهوانية، وهو الذى يستعان به على حفظ النوع، وعقلى ينشأ من القوة النطقية لغرض القرب من المعشوق الأول. وهذا الحب الثانى يطابق الحب الأفلاطونى مطابقة بيِّنة.

ونمضى مع الزمن، وإذا ابن حزم الأندلسى يؤلف كتابه «طوق الحمامة فى الألفة والألاف» وفيه يقول إن الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخلقة فى أصل عنصرها الرفيع. وابن حزم يردد فكرة أفلاطون فى المثل، فالنفوس الإنسانية ترجع فى أصل نشأتها إلى نفس عليا واحدة توزعت أجزاؤها فى نفوس الناس، ويقول إن هذه الأجزاء تتصل فيكون الحب وتنفصل فيكون البغض. فسِرُّ الحب والبغض فى المخلوقات إنما هو فى الاتصال والانفصال بين النفوس، فالشكل إنما يستدعى شكله، والمثل إلى مثله ساكن. وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، فكيف بالنفس، وعالمها العالم الصافى، والله عز وجل يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف آية ١٨٩)فجعل سبحانه وتعالى علة سكون الزوج إلى زوجته أنها منه. ولو كانت علة الحب جمال الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن شخص القبيح فى الصورة، وهو خلاف الواقع، ولو كانت العلة للموافقة فى الأخلاق لما أحب المرء من لا يوافقه فى الشيم وهو ما لا يشهد به أيضا الواقع. فوجب أن يكون الحب شيئا فى ذات النفس. فإن قيل إن هذا يقتضى أنه إذا أحب شخص شخصا بادله حبا بحب، ونحن نرى كثيرا من المحبوبين ينفرون من محبيهم، فالقياس إذن غير مطرد، ويبدو أن نفس الذى ينفر من محبه ولا يقبل عليه إنما يبعده عنه بعض الأعراض الطارئة التى تكتنفها من الطبائع الأرضية، فلم تحس الصلة بينها وبين الجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها فى جسدها، أما المحب فنفسه متخلصة من هذه الأعراض عالمة بمكان من كان يشركها فى المجاورة فى أصل الفطرة، وهى لا تزال تبحث عنه، حتى تجده، فتنجذب إليه كالمغناطيس والحديد وكالنار والحجر، فحبه إنما هو تجديد لحب قديم فى النشأة الأولى، ولعل من الطريف أن نجد هذه الفكرة عند بعض العذريين إذ يقول:

تعلَّق روحى روحَها قبل خَلْقنا ومن بعد ماكنا نطافاً وفى المَهدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنتقض العهدِ

ويلاحظ ابن حزم أن النفس إذا ميزت فى المحبوب شطرها الذى تبحث عنه ثبتت فيه، أما إذا لم تميز فيه هذا الشطر فإن حبها لا يتجاوز الصورة الجسدية وهو حينئذ يكون حب لذة ومتاع، وهو ليس الحب السامى المصفى الذى تجد فيه النفس كمالها المنشود وإنما هو الحب الجسدى الذى تنقاد فيه لداعٍ غامض يصدر عن غرائزها.

وللحب عند العرب منازل ومراتب متعددة، وأول مراتبه الهوى وهو الميل إلى المحبوب، ويليه الشوق وهو نزوع المحب إلى لقائه، ثم الحنين وهو شوق ممزوج برقة، ويليه الحب وهو أول الألفة، ثم الشغف وهو التمنى الدائم لرؤية المحبوب، ويليه الغرام وهو التعلق بالمحبوب تعلقا لا يستطيع المحب الخلاص منه، ثم العشق وهو إفراط فى الحب ويغلب أن يلتقى فيه المحب والمحبوب، ثم التَّتيُّم وهو استعباد المحبوب للمحب، يقال تيَّمتْه حبا، ويليه الهيام وهو شدة الحب حتى يكاد يسلب المحب عقله، ثم الجنون وهو استلاب الحب لعقل المحب. وتتكرر مع مراتب الحب كلمات مثل الولع وهو شدة التعلق بالمحبوب، والشجن وهو الهمّ والكرب، واللوعة وهى الألم، وتباريح الحب وهى شدائده، والجوى وهو كتمانه والضيق به، والكمد وهو الحزن الشديد، والوجد وهو الصبابة وشدة الحب، والوله وهو التحيُّر من شدة الوجد، والكلف وهو الاستغراق فى الحب، إلى غير ذلك...

وإذا كان العرب قد شغلوا بالحب والحديث عنه كما شغل اليونان الأقدمون فإن الغربيين المحدثين قد شغلوا به وبالبحث فيه وفى طبيعته وأنواعه شغلا متصلا، ومن خير من بحثوا ذلك كله فى القرن التاسع عشر

ستندال الفرنسي، والحب في رأيه أربعة أنواع: حب استلطافي أشبه ما يكون بالألفة والصداقة، وحب مغرور يرضي به المحب غروره وكبرياءه، وحب جسدي ينبع من الغرائز الجنسية، وحب عاطفي عنيف، وهو حب العشاق المتيمين المشهورين في التاريخ.

وعرض ستندال لنشأة الحب ونموه، فجعله يرقى في سبع مراتب، أولاها مرتبة الإعجاب المتصل بالمحبوب، وثانيتها مرتبة الشوق إليه، وثالثتها مرتبة الأمل، أما الرابعة فهي المرتبة التي ينشأ فيها الحب، إذ يحس صاحبه إحساس اللذة والألم فيه. وحينئذ يأخذ الحب في النمو، فيصعد بالمحب إلى المرتبة الخامسة، وهي المرتبة التي يصبح فيها محبوبه مثله الأعلى في الجمال والسعادة به، بحيث لا يدانيه إنسان آخر في صفاته ومحاسنه. وعبرت عن ذلك عزة صاحبة كثير حين قال لها الحجاج : والله ما أنت كما قال فيك كثير، فقالت له:

إنه لم يرني بالعين التي رأيتني بها، ومن أجل ذلك قال بعض المحبين:

ووالله ما أدري أزيدتْ ملاحةً وحسنا على النسوان أم ليس لي عقل

وينتقل المحب عند ستندال من هذه المرتبة الخامسة إلى المرتبة السادسة، وهي التي يصطلي فيها نيران القلق والخوف والشك المحرقة. ولا تلبث هذه المرتبة أن تسلمه إلى المرتبة السابعة، وهي أقصى مراتب الحب وأبعدها غاية، وهي المرتبة التي يعنف فيها الحب، ويجمح بصاحبه جموحا لا يعرف فيه قصدا ولا اعتدالا.

وفي هذا القرن، قرن علم النفس والتحليل النفسي كثرت أبحاث النفسيين في الحب وعلاقته بالغريزة الجنسية والعقل الباطن الذي تعصف

به عواصف لا حصر لها من الغرائز والرغائب الجسدية والانفعالات الشعورية والعقلية. ويقول بعض الباحثين إن الحب انحراف بالغريزة الجسدية، أو هو تسام بها، ويقول آخرون: إنه استعادة لذكريات ماضية، بينما يزعم غير واحد أن المحب إنما يحب ذاته من خلال محبوبه، فهو لا يرى فيه إلا نفسه، وكأنه مرآة صافية له، فيحلم به وهو إنما يحلم بنفسه، ولكل محب طريقته فى الحلم. ومن خلال هذا الحلم لا من خلال الحقائق المجردة تغنى المحبون بمن يحبونهم ونظموا فيهم أشعارهم الغرامية، التى تبعثها تلك القوة السحرية العجيبة قوة الحب التى تعمى المحب عن رؤية أى نقص فى محبوبه، بل التى تجعله يضفى عليه جميع الخصال والمحاسن، حتى لكأنه نسج من أشعة القمر، ولا يزال يعيش فى هذا الخيال أو هذا الحلم منتشيا بشرابه الصفو الهنئ.

عوارض الحب

متى برَّح الحب بصاحبه أصبح إنسانا غير عادى، فهو يعيش فى عالم خاص به لا يرى فيه إلا محبوبه وخياله، وكأنما تضيق فى عينه آفاق الكون، فتصبح أفقا محدودا، بل رقعة محدودة يملؤها المحبوب والفكر فيه والتأمل فى جماله، ولعل ذلك ما يجعل المحب ينطوى على نفسه، فمحبوبه كل همه وفكره وشغله، وهو لا يأنس إلا إليه وإلى ما يذيقه من رَحيق حبه وحريقه.

ويدفع ذلك المحب إلى أن يعيش فى عزلة عن مجتمعه، فقد ملأ عليه محبوبه كل وقته، وأصبح فتنة فاتنة له، لا يستطيع انصرافا عنها ولا تخلصا منها، وكأنه – كما يقول بعض النفسيين – يرى فيه نفسه وذاته أو يرى فيه الصورة التى كونتها غرائزه وعواطفه وانفعالاته التى اختزنها فى عقله الباطن

علـى طول الزمن، فهو يرى فيه الماضـى والحاضر والوهم والحقيقة والخيال والواقع. ومن كل ذلك تتألف صورة المحبوب الجميلة الرائعة التى تستأثر به خالبة للبـّه، مالكة عليه كل شىء من أمره.

وكأن المحبوب يجمع للمحب كل ما انفعل به وتأثر فيما مضى من حنان أمٍّ أو شـفقة أب أو عطف أخت ومن جمال وجه أو لون شـعر أو طابع حسن أو نظرة سـاحرة أو نغمة صوت وغير ذلك مما يسـتقر فى عقله الباطن، فإذا ما صادف شـيئا من ذلك فى شـخص انصب فى نفسـه هذا التيار العجيب مـن الحب، أو قل نفذ هذا التيار من عقله الباطن إلى عقله الظاهر، فتسـلط عليه هذا الشـخص، أو قل سـلط عليه هو ذكرياته وقـوى خياله. فإذا هو يستحيل فى نظره الى كائن شعرى فاتن أخاذ. وهذا هو سر الحب عند بعض النفسـيين وسر رابطته السـحرية التى توثق الأواصر بين المحب ومحبوبه، فـإذا هو تكفيه منه النظـرة والإيماءة العابرة، أما الوصـل فهو كمال الأمنية ومنتهى الأمل والفرح الذى لا شائبة معه والصفاء الذى لا كدر فيه. وكل فراق وهجر لا يزيد المحب إلا ولوعا بمحبوبه، وكذلك كل عذل ولوم، وكم شـكا المحبون من العذال والرقباء والوشـاة، وإنهم ليضنون ويسـقمون ويطول بهم السـهر والسهاد ويتعذبون عذابا ممضا، وهم منتشون لا يفيقون، سعداء بكل ما يألمون، أو كما قال الشاعر:

هو الحُبُّ فاسلم بالحَشَا ما الهوى سَهْلُ فما اختاره مُضْنًى بـه ولـه عقْـلُ
وعِشْ خالياً فالحـبُّ أوَّلـُـهُ عَنَـا وأوسـطه سُـقْمٌ وآخـره قَتْـلُ

وربما انتهى الحب بصاحبه إلى حال من الهيام تشـبه حال المجانين، كمـا نعرف عن مجنـون ليلى فى القديم، إذ يصيـب المحب ذهول كذهول المجانين يأتى من استغراقه فى محبوبه وملازمته لفكرة واحدة هى فكرة حبه

وثبوتــه عندها لا يفارقها، بالضبط كما يحدث لبعض المجانين حين يلزمون فكرة، لا يتحولون عنها ولا ينصرفون.

وإذا بلــغ المحب هذه الدرجة مــن الفتون والجنون بمحبوبه لم يعد من الممكن أن يخلص من حبه وحلمه به، أما إذا كان حبه معتدلا فمن الممكن أن يخلص منه ويصحو من سكرته. ويحدث ذلك كثيرا إذ انتهى الحب بزواج، إذ يفتــح الزواج – فى أحــوال كثيرة – عينى المحب المعصوبتين، ويزيل ما عليهما من غشــاوة ســحرية، فيستيقظ من حلمه ويندم على ما فرط من أمره. وهو لا يندم سريعا، بل يأخذ فى الندم رويدا رويدا وقد تراءت له خيبةٌ مُرَّة. ولذلــك كان الناس يخافون من زواج الحب، وهو مهما يكن أجمل وأبقى من زواج المصلحة، وقد يظل المحب على حبه بعد الزواج، وحينئذ يكون الزواج مثاليا، بل يكون حلما ذهبيا سعيدا ليس وراءه ولا مثله حلم.

□□□

الحب العذرى

بنو عُذْرة والحب

بنـو عذرة إحـدى قبائل قضاعة الكثـيرة التى كانت تنتشـر فى شمالى الحجاز وتمتد عشـائرها وبطونها من المدينة إلى الشام، وكانوا يسكنون وادى القرى، وهو واد طويل بين تيماء وخيبر فيه قرى منثورة وفيه زروع ونخيل، وفيه يقول جميل:

ولقد أجرُّ الذيل فى وادى القُرَى نشوان بين مـزارعٍ ونخيـلِ

وفـى هذا الوادى المرع الخصب كان بنـو عذرة يتـنقلون بخيامهم، وقد رزقهـم الله مـن الثمرات ما جعل حياتهـم رغدة هانئة بالقيـاس إلى قبائل الصحراء الذين كانوا يقاسون غير قليل من الشظف، حين تجدب مراعيهم، فتموت القطعان ويهلك الناس.

لم تكن حياة بنى عذرة قاسية، ولا كان فيها هذا الجدب المهلك، إنما كان فيها خصب ونماء هيآ لشىء من الفراغ كما هيآ لشىء من الاستقرار وأن تجرى الحيـاة هادئـة، فليس فيها منازعات القبائل علـى المراعى وما صحب هذه المنازعات من حروب دائرة لا تـنقطع.

وكان لذلك أثره فيما خلفت بنو عذرة من شعر، فإننا لا نجد عندها شعر الحماسة والفخر والزهو الذى كان منتشرا بين قبائل نجد، وإنما نجد عندها نمطا آخر من شـعر غنائى قوامه التعبير عـن آلام النفس إزاء الحب وكأنهم

لما فرغوا لأنفسهم أو هيأت لهم حياتهم أن يفرغوا لأنفسهم أخذوا يغنونها هذا الضرب من الشعر الوجدانى.

وليس معنى ذلك أننا لا نجد شعر الحب عند غير بنى عذرة، إنما معناه أنهم أكثروا منه وأن حياتهم أعطتهم الفرصة لكى يغنُّوا أنفسهم، أما بعد ذلك فإن العرب تغنوا بالحب، تغنت به قبائلهم منذ العصر الجاهلى ولكنها لم تجعله كل همها، فقد كانت الغارات تشغلها، وكان الأخذ بالثأر مدار حياتها، فنظمت فى الفخر والمدح والهجاء.

أما بنو عذرة فانطووا على أنفسهم واستمدوا من عواطفهم الذاتية ما جعلهم يشتهرون بين القبائل العربية بهذا الغزل الصافى الرقيق، وكان للإسلام أثره فى نمو هذا الغزل، بما فرض على الناس من أن يغضوا أبصارهم ولا يأتوا بفاحشة ولا ينتهكوا الحرمات.

ولم يقف تأثير مثالية الإسلام عند بنى عذرة، فقد أخذت هذه المثالية تطبع شعر البدو فى نجد بطوابع واضحة من البراءة والطهارة والتسامى، فلم نعد نقرأ شعر الحب الإباحى الذى كان يردده امرؤ القيس وغيره من شعراء نجد فى الجاهلية، إنما أخذنا نقرأ شعرا عفيفا، فيه نبل، وفيه هذا الحزن الذى يصدر عن نفس ملتاعة تخاف الله فيما تأتى من قول وفعل.

وهيأت لهذا الحزن أيضا بيئة الصحراء وما يخيم عليها من سكون وصمت فى لياليها المقمرة الشاحبة، ولذلك لم يكن من الغريب أن تستهل القصيدة العربية حتى فى الجاهلية بالبكاء على الأطلال والديار، فطبيعة البيئة الصحراوية تبعث على الشَّجا والحزن والألم.

الصحراء والإسلام إذن هما اللذان أعدا لظهور هذا الغزل العفيف الحزين وما طوى فيه من حب نبيل شريف، وهو غزل يعبر عن أسمى العواطف التى

يفيض بها القلب الإنسانى. غزل نحس فيه لذع الحرمان وأن الرجل يتهيب الاقتراب من المرأة، فهى كائن ملائكى تحول قدسيته دون لمسه، وحتى هى إن وصلته لا يزال يشعر شعورا عميقاً بالألم واليأس، بل قد يفضى به حبه إلى الجنون أو إلى الموت، وهو لا يأتى ذلك وحده، بل تأتيه المرأة أيضا سعيدة قريرة العين.

وتستفيض الأخبار بذلك عن بنى عذرة وغيرهم من الأعراب فى هذا العصر الإسلامى عصر مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس بن ذَريح ، سئل رجل من عذرة: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا ، وقال رجل لعُرْوة بن حِزام العذرى: يا هذا بالله أصحيح ما يقال عنكم : أنكم أرق الناس قلوبا ؟ قال: نعم والله لقد تركت ثلاثين شابا قد خامرهم الموت، ما لهم داء إلا الحب. وسئلت امرأة عذرية بها هوى يدنيها من الموت: ما بال العشق يقتلكم معاشر عذرة من بين أحياء العرب؟ فقالت : فينا تعفف ، والعفاف يورثنا رقة القلوب والعشق يفنى آجالنا. وقيل لأعرابى: ماكنت صانعا لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أمتع عينى من وجهها وقلبى من حديثها وأستر منها ما لا يحبه الله، قيل ، فإن خفت ألاّ تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أَكِلُ قلبى إلى حبها ولا أصير إلى نقض عهدها. وقيل لأعرابى آخر وقد زوجت عشيقته وأهلها يجهزونها لزوجها : أيسرك لقاؤها ؟ قال: نعم والذى أمتعنى بها وأشقانى بطلبها، قيل: فما كنت صانعا؟ قال: كنت أطيع الحب فى لقائها والتمتع بحديثها وأعصى الشيطان فى إثمها وما يوحى من نزواته، ثم قال: وهل أفسد عشقَ عشرِ سنوات بما يبقى عاره فى ساعة تنفد لذتها وتبقى تبعتها، إنى إذن للئيم، لم ينجبنى أصل كريم. وقيل لبثينة: هذا جميل يتعذب فى حبك فهل عندك شىء تنفسين به وَجْده؟ فقالت: ما عندى أكثر من البكاء إلى أن ألقاه فى الدار الآخرة أو أزوره وهو ميت تحت الثرى.

وهـذا الحب العفيف الطاهر انداحت منه موجة إلى البيئات المتحضرة فى الحجاز، فإن أهل مكة والمدينة شـاع عندهم حقـا غزل صريح نمته الحضارة والـترف اللذان غرقـوا فيهما، وهو غزل ثرثار لا يخجـل ولا يتألم إلا قليلا، ولكن مع شـيوع هذا الغزل نجد أسرابا من غزل عفيف، تتغلغل فى تضاعيف هذا الغزل الصريح، فإذا هناك من يشقون بالحب ويذوقون لذته الحلوة المؤلمة. وكانـت أهم جماعة غزاهـا هذا الغزل العذرى هى جماعـة الفقهاء وأصحاب الحديث من أمثال عُرْوة بن أُذَيْنة وعبيد الله بن عتبة وعبد الرحمن الجشـمى الذى سمع سلاَّمة وهى تغنى، فوقعت فى قلبه وهام بها حبا، ونظم فيها كثيرا من الأشعار، وكان يعرف بالقَسِّ لكثرة عبادته، فلما ذاعت فيها أشعار نسبت إليه، سُميت سلامة القس، وقالوا إنها همت ذات يوم أن تقبله فامتنع عليها، فقالـت له: ما يمنعـك وأنت تحبنى؟ فقال لها ويحك أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(الزخرف آية ٦٧) وإنى والله أكـره أن تكون صلة ما بينى وبينك فـى الدنيا عداوة فى يوم القيامة. ونهض وعيناه تذرفان بالدموع. وتأثر بصنيع الفقهاء كثير من أهل مكة والمدينة، فكان غير شـاعر يرتفع بحبه عن أن يكون عبثا ولهوا، وإذا كان عمر بن أبى ربيعة زعيـم الغزلين الحضريين فى البلدتين يتخذ الغزل فنا من فنون الترف ويقصد بـه إلى العبـث والدعابة، فقد كان وراءه غزلـون صادقون يرتفعون بغزلهم عن اللهو والهزل على نحو ما نجد عند الحارث بن خالد القرشى، فقد كان عاشقا لعائشة بنت طلحة، وله فيها أشعار كثيرة تصور وجده وحرقته، ولما قتل عنها زوجهـا مصعب بن الزبير قيل لـه: ما يمنعك الآن من زواجها؟ قال: والله لا يتحدث رجالات قريش أن تشبيبى بها كان لريبة ولشئ من الباطل.

وقد ظلت هذه الصورة الرائعة للغزل العفيف المحروم بعد العصر الإسلامى ترافق العرب فى عصورهم المختلفة ، فقد تأثرها غير شاعر، بل عاشها كثير

من الشعراء أمثال العباس بن الأحنف صاحب فوز المشهور بغزلياته فى العصر العباسى، وعنى بها المؤلفون فألف فيها محمد بن داود كتابه الزهرة ، وألف ابـن حـزم كتابه طوق الحمامة . وليس من ريـب فى أن هذا الحب العفيف الذى يصور صفاء القلب وطهارة الضمير كما يصور احتمال الآلام والمشقات فى صـور رائعـة من الوجد، ليس من ريب فى أنه هو الذى أعد فيما بعد لظهور الحـب الصوفى ، فقـد وجد فيه الصوفية نبعا لا ينضب ولا يجف لمواجدهم إزاء الذات الإلهية، بل وجدوا فيه خير ما يعبر عن لواعج الشوق المستعرة فى حنايا صدورهم وما قاسوا فى حبهم من صنوف الآلام والبلايا والمحن.

ومـا المحب العذرى إلا صوفى خالص، صوفى فى ظمئه الذى لا ينتهى إلى رؤية الحبيب ولقائه، وصوفى فى تغنيه بعشـقه الجامح الذى يملك كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره، وصوفى تعييه الحيلة وتعوزه الوسيلة إلى لقاء بالمحبوب، وإنه ليسـير فى طريق لا نهاية لها ولا سـبيل إلى الدنو من غايتها إلا بإسـلام الروح، وصوفى فـى ارتفاعه عن كل صغائر الحياة، لعله يقـترب من قـدس الأقداس، وصوفى فى ابتهاله وذله وضراعته، وما أشـبه شـعره بالتراتيل الدينية. لذلك كله لا نغلو إذا قلنا إن هذا الحب العذرى هو الذى أتاح لنا هذه الثروة البديعة من الحب الصوفى السامى.

غزل وقصص كثير

بـين أيدينا من هذا الغزل العذرى تـراث ضخم يحفل به كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وغيره من كتب الأدب القديمة، ونحن لا نلم به حتى نراع روعة شـديدة، وهى روعة ترجع إلى بسـاطته وسـذاجته كما ترجع إلى صدقـه وإخـلاص قائله فى تصوير عاطفته، ولذلك كنـا لا نقرؤه حتى نتأثر به تأثرا شـديدا، لأنه يمثل نفوسا عاشقة حقا، وهى نفوس تتألم، نفوس قد

طهرهـا الحب وصفاها من أدران الحـس، فارتفعت عن المادة وكل ما يتصل بالمادة إلى أفق رفيع من نقاء القلب وصفاء الضمير.

والشاعر يمشى فى طريق ملئ بالصعاب والأشواك، صعاب الهجر والصد وأشـواك الوشاة والرقباء، وهو يجاهد ويعانى، لا يتحول عن وجهته، فعينه دائمـا معلقة بالمحبوب، الذى سـلب روحه وعقله وأشـفى به على التلف والهـلاك. ومهمـا صد عنه ولم يبادله الهوى والـود، فإنه لا ييأس من بلوغ الأمل المحجوب فى أستار الغيب، فالصبح قريب، وهو لا يكف عن الرجاء، مهما تكاثفت الدياجى وتلاحقت الظلمات، فالحبيب سـيدنو منه وسـيفوز بلقائه، وسـينهل من مورده العذب ما يشفى غصصه، ويزيل حزنه وترحه. ولكـن أين هذا المـورد العذب؟ إنه لا يظفر بنهلة منه تـروى ظمأه، وهو إن اقترب منه لا يلبث أن يبعد فى صحراء هذا الحب، وهى صحراء موحشـة محرقة، تمتلئ بأعاصير لا أول لها ولا آخر، وكم يلقى سـالكها من متاعب ومصاعب، وكم يحف به من أخطار ومهالك، وهو باكى العين محزون الفؤاد موزع الخاطر قد امتلأ صدره بالهموم والغموم.

ولا تظن أن هذا الجحيم الذى كان يشـتعل فى فؤاد الشاعر العذرى كان حممـا ونيرانا خالصة، فإنه سـرعان ما يتحول بردا وسـلاما ويصبح نعيما وربيعا باسما حين يفوز من محبوبته بوصل أو لقاء أو زيارة فإن الدنيا تشرق مـن حوله، وتصبح بهجة وسـعادة خالصة، وهى سـعادة لا ينالها إلا بعد التعب والضنا والصبر الطويل. فالثمرة الحلوة لا يجنيها إلا من كابد وعانى، وعلى المحب دائما أن يحتمل أوار الحب وما يلفحه من رياح الهجر، متطلعا إلى نسـيم الرضا، وعليه أن يحتمل أشـواك الطريق حتـى ينال الرضا، وأن يعانى حنادس الليل الطويل حتى يظفر بالفجر الجميل.

وأنت لا تقرأ فى شعر هؤلاء العذريين حتى يملك عليك نفسك بهذه اللوعة، بل هذه الغلة التى تتحرق لها قلوبهم دون أن يستطيعوا لها برءا أو شفاء، وأنت لا تجد أثناء ذلك تكلفا ولا ما يشبه التكلف وإنما تجد صدق اللهجة وحدة الشعور وحرارة العاطفة مما يأسر لبك ويخلب عقلك. ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا الشعر العذرى هو أروع صورة عربية لشعر الحب، فقد محص العشق قلوب هؤلاء الشعراء وطهرها وصفاها بل جعلها طهرا وصفاء خالصا.

وبون بعيد بين شعر هؤلاء الشعراء وشعر أسلافهم الجاهليين، فقد كانوا وثنيين ماديين، وكان شعرهم أو غزلهم ماديا إباحيا، لا كرامة فيه للمرأة ولا إجلال ولا قدسية، فالشاعر يتغزل فيها صادرا فى غزله عن غرائزه الجنسية التى يشترك فيها الإنسان والحيوان ، فإذا تركنا الجاهليين إلى كثرة الشعراء المتحضرين فى مكة والمدينة ممن كانوا يعاصرون العذريين وجدنا الغزل عندهم تشوبه المادة فى كثير من جوانبه، ويقصد فيه الشاعر إلى العبث والهزل والدعابة فى كثير من الأحيان، فهو ليس شعر الحب الملتاع ولا شعر الحب العفيف الذى لا يعرف الحس والمادة ولا الهزل والعبث، وإنما يعرف الحب الجاد الحزين وما يبعث فى نفس المحب من عاطفة متقدة ومن كآبة وحزن ومن يأس ورجاء وشقاء وسعادة.

وعلى هذا النحو لم يكن غزل العذريين كغزل المتحضرين الذين عاصروهم ولا كغزل أسلافهم الجاهليين، فهو غزل يعبر عن نفوس محرومة قد طهرها الإسلام من كل دنس، وبرأها من كل غرض جسدى تافه، غزل لا يراد به إلى تصوير المرأة وانما يراد به إلى تصوير هذه النفس العاشقة وما تبتئس به وتنعم فى عشقها وما تكابده فى هذا العشق من ألوان العناء وما تجنيه من ثمرات مرة حلوة إن صح أن تكون هناك ثمرات حلوة مرة فى آن واحد.

والإسلام من غير شك هو الذى هيأ لظهور هذا الغزل، فقد صان المرأة وأسبغ عليها غير قليل من الكرامة والإجلال، وبعث فى نفوس هؤلاء البدو مثالية خلقية، جعلتهم أو جعلت أفئدتهم تصغى إلى تعاليمه، فإذا هى تخلصها من أدران الجاهلية وأدران الجسد وما يتصل بالجسد، وإذا هذه النفوس قد صفيت وصفى معها الحب، وتخلص من شوائبه المادية القديمة. ولم تشع بين هؤلاء البدو من العذريين الحضارة ولا دخل فى ديارهم الترف، فلم تفسد نفوسهم ولا تحول غزلهم إلى فن من فنون الترف، بل بقيت له بداوته وسذاجته وبساطته، وأخذوا يعبرون به عن دخائل نفوسهم إزاء المرأة وقد حاطها الإسلام بهالة من التجلّة، فإذا هم ترق أحاسيسهم وتنبل عواطفهم ومشاعرهم. وإذا هذا الغزل العفيف الظامئ يصدر عن فطرتهم وسليقتهم صدورا طبيعياً كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة.

ولم ترو لنا كتب الأدب هذا الغزل وحده، وإنما قدمته فى قصص غرامى يصور إلى حد بعيد تجارب كل عاشق من هؤلاء العشاق وما بعثه فى كل تجربة على نظم مقطوعاته الغزلية أو الوجدانية، وأنت لا تقرأ هذا القصص حتى تجد فيه المزاوجة الدقيقة بينه وبين الأشعار التى رويت فيه، فقد حافظ القصاص على سياق هذا القصص، ولم يفرطوا فى وضع المناسبات الدقيقة لما ساقوا من أشعار.

والذى لا ريب فيه أن لغة هذا القصص كلغة ما روى فيه من أشعار، لغة فيها جزالة وفيها هذا الصفاء الذى نجده فى شعر العذريين، أو قل هذا الجمال اللفظى الذى يمتاز به الغزل العذرى. ولم يعقد الرواة فى هذا القصص، بل تركوه فى حال ساذجة، كسذاجة هؤلاء البدو الذين روى

عنهم، فهو قصص بسيط، ليس فيه تكلف ولا ما يتصل بالتكلف، قصص بدوى إن صح هذا التعبير، ليس فيه بُعد ولا إغراق فى التخيل، ومن هنا يأتى جماله، لأنه يصور حياة فطرية سليمة.

ويظهر أن القصاص لم يدركوا سبب هذا الغزل المحروم وأن مثالية الإسلام الخلقية هى التى دفعت إليه، فوضعوا من عند أنفسهم سببا ظنوا أنهم به يستطيعون أن يوجدوا العقدة النفسية التى أحدثت هذا الحرمان، وهو سبب سيراه القارئ منتشرا فى كثير من هذا القصص الذى رويناه، وذلك أنهم يروون أن العرب فى هذا العصر الإسلامى الذى ظهر فيه ذلك الغزل العذرى الملتاع الظامئ أبدا كانوا يكرهون أن يزوجوا فتياتهم من عشاقهم الذين ينظمون فيهن أشعارهم، فيفضحونهن ويفضحون آباءهن وعشائرهن، وهى فضيحة كبرى لم يكن بد من أن يعاقب عليها العاشق، فيحرم من معشوقته جزاء وفاقا لجريمته فى حقها وحق أهلها. ولا يعرف التاريخ الصحيح هذه العادة للعرب، وهى ليست من سنن الإسلام ولا مما فرضه على الناس، وهو لا يحرم الحب الطاهر الشريف، إنما يحرم الحب الآثم الخسيس.

وزاد الرواة أن السلطان كان يهدر دم هؤلاء الغزلين، وليس بمعقول أن الخلفاء الأمويين كانوا يهدرون دماءهم ويستبيحونها، بغير نص من القرآن الكريم ومن الحديث النبوى، وما حرم الإسلام شيئا كتحريم القتل، بل لقد حرمه حتى فى الأخذ بالثأر، فكيف يحله الخلفاء والحكام فى العشق العفيف والحب الطاهر الشريف، ولقد كانوا هم أنفسهم يروون غزل هؤلاء المحبين ويعجبون به وبما فيه من وجد وهيام، وكان أمامهم شعراء مكة والمدينة من أمثال عمر بن أبى ربيعة، ممن كانوا يصرحون فى حبهم ولا يوارون ولا يستخذون ولا يخجلون، ولم يحدث أن طلبوا عقابهم فضلا عن قتل النفس

المحرمة بغير حق. إنما هو خيال القصاص الذين صاغوا هذه الأخبار، ولم يفكروا فى أنهم يكتبون حقائق، إنما فكروا فى أنهم يكتبون قصصا للتسلية والمتعة الأدبية، وقد رأوا فى إهدار دم العاشق البدوى وتحريم المعشوقة التى تغزل بها عليه ما يحبك قصصهم الغرامى ويسند سياقه، فعمدوا إلى رواية ذلك بقصد الحبكة القصصية. ويمكن أن ندخل فى هذه الغاية الفنية الخالصة ما تخيلوه من توحش مجنون ليلى حتى ألف الظباء، وعايشته، وما أكثروا من غشيان الإغماء للعشاق وكيف أنه قد يودى بحياتهم. فكل ذلك إنما هو خيوط خيالية أضيفت إلى النسيج الواقعى لهذه القصص الغرامية، وهى خيوط ساعدت على إحكام هذا القصص وجعلته عملا فنيا بديعا.

❑❑❑

مَجْنون لَيْلى

المجنون وصاحبته ليلى

كان قيس بن المُلوَّح جميل الوجه أبيض اللون، وكانت ليلى ابنة عمه المهدى من أجمل النساء وأظرفهنّ وأحسنهن جسما وعقلا وأفضلهن أدبا وأملحهن شكلا. وقد نشآ معا يلعبان فى حى من أحياء بنى عامر بنجد، ويتبادلان صداقة الطفولة العذبة حتى إذا شبا قليلا تبعا – على عادة أمثالهما – أغنام أبويهما، يرعيانها، وكل منهما يألف صاحبه ويشعر بالسرور فى رفقته، ولم يكونا يعلمان ما يخبئه لهما القدر وأنه جادٌّ من ورائهما فى نسج قصة رائعة من قصص الحب العذرى الطاهر. وكم من أطفال نشئوا معا، وكم من أطفال تقابلوا وتحادثوا ولم يأبه بهم الناس، لأن لقاءهم وحديثهم ذهبا مع الريح، أما لقاء المجنون بليلى وأحاديثه معها فقد خلدا على التاريخ، إذ تطور هذا اللقاء وتلك الأحاديث إلى نبع لا ينضب من ينابيع الحب الشريف. لقد كانا يرعيان الأغنام وأولادها الصغار التى يسميها العرب البَهْم، وهما لاهيان عن الدنيا وعن أمرهما، لا يعرفان ما الحب ولا ما أماراته. وكبرت ليلى، وأصبحت عروسا تخطب، فمنعها أبوها من الرعى على عادة لداتها حين يكبرن، وظلت صورتها فى الرعى لا تبرح ذاكرة قيس، فقد كان يرى فيها أجمل ذكرياته معها، وفى ذلك يقول:

تعلقت ليلى وَهْى ذاتُ ذؤابةٍ ولم يَبْدُ للأتراب من ثَدْيها حَجْمُ
صغيرين نرعى البَهْمَ ياليت أننا إلى اليوم لم نَكْبرْ ولم تَكْبُرْ البَهْمُ

اندلاع نيران الحب

انقطعت ليلى عن لقاء قيس بن الملوح، فأحس بفراغ كبير، بل سرعان ما أحس أن المودة التى كانا يتبادلانها تركت آثارا عميقة فى نفسه، وذات مرة كان يمر بالحى راكبا ناقة له، فرآها مع نسوة، ودعونه إلى النزول والحديث معهن، فنزل، وكان محدثا لبقا، وجعل يحادثهن، وعينه لا تفارق ليلى، وجاءته لتمسك معه باللحم، وهو يقطعه، فقطع كفه بالسكين وهو شاخص فيها، فجذبت السكين من يده وهو لا يدرى. وأوقد نارا للشواء، وطرح قطع اللحم فيها، وأقبل يحادثها، فقالت له : انظر إلى اللحم هل استوى أم لا؟ فمدَّ يده إلى الجمر، وجعل يقلب بها اللحم، فاحترقت وهو لا يشعر. ولما عرفت ما داخله صرفته عن ذلك، ثم شدت يده بهُدْب ردائها. وذهب وقد استحكم عشقها فى قلبه.

وكانت ليلى بعد هذا المجلس تستدعيه لزيارتها، فكان يأتيها ويتحادثان وكل منهما مقبل على صاحبه معجب به، ولا يزالان كذلك حتى يمسيا. وانصرف يوما إلى أهله فبات بأطول ليلة شوقا إليها واجتهد أن يغمض، فلم يقدر على ذلك، فأنشأ يقول:

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا ... لىَ الليلُ شاقتْنى إليكِ المضاجعُ
أُقَضِّى نهارى بالحديث وبالمُنى ... ويجمعُنى والهمَّ بالليلِ جامعُ
لقد ثَبتَتْ فى القلب منكِ محبَّةٌ ... كما ثَبتَتْ فى الراحتينِ الأصابعُ

وخرج ذات يوم يريد زيارتها، فلما قرب من منزلها لقيته جارية فتشاءم منها، فلما سار إليها حدثها بقصته وتشاؤمه من الجارية وأنه يخاف تغير عهدها وبكى، فقالت له: لا تخف، حاش لله من تغير عهدى، لا يكون والله ذلك أبدا إن شاء الله. فلم يزل عندها يحادثها بقية

يومـه. ووقع له فـي قلبها مثل ما وقع لها في قلبه. فجاءها يوما كما كان يجئ، وأقبـل يحدثها، فأعرضت عنه، وأقبلت على فتى يسـمى منازلاً بحديثهـا، تريد بذلك محنته وأن تعلم ما فـي قلبه، فلما رأى ذلك جزع جزعـا شـديدا حتى بان في وجهه وعُرف فيـه، فلما خافت عليه أقبلت كالمُسِرَّة إليه، فقالت:

كلانا مظهـرٌ للناس بُغْضـاً ... وكـلٌّ عند صـاحبه مَـكينُ
تُبلِّغنـا العـيونُ مقالتَيْنـا ... وفي القلبين ثَمَّ هَـوًى دَفينُ
وأسـرارُ المَلاَحظِ ليس تَخْفَى ... إذا نطقتْ بما تُخْفِي العيونُ

فسُـرِّى عنه وانكشـف همه وعلم ما في قلبها، فقالت له: إنما أردت أن أمتحنـك والذى لك عنـدى أكثر من الذى لى عنـدك، وأُعطى الله عهدا إن جالست بعد يومى هذا رجلا سواك، حتى أذوق الموت إلا أن أُكْرَه على ذلك، فانصرف عنها قرير العين، وهو يقول:

أظُـنّ هواهـا تارِكـى بمَضَـلَّةٍ ... من الأرض لا مـالٌ لدىَّ ولا أَهْـلُ
ولا أحـدٌ أُفْضى إليـه وصـيَّتى ... ولا صـاحبٌ إلا المطيَّـةُ والرَّحْـلُ
محَا حبُّها حُـبَّ الأُلى كُنَّ قبلهـا ... وحَلَّت مكانا لم يكن حُلَّ مِن قبْلُ

استغراق المجنون في الحب

وسُئل قيس قبل اختلاط عقله عن أعجب شيء أصابه في وجده بليلى، فقـال: طَرَقنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا لهـم أُدْمٌ (غموس) فبعثنى أبـى إلى منزل عمى أبى ليلى وقال: أطلب لنـا منه أُدْما، فأتيته، فوقفت علـى خِبائه، فصحت به، فقال: ما تشـاء؟ فقلت: طرقنا أضياف ولا أُدْم عندنا لهم، فأرسـلنى أبى نطلب منك أُدْما، فقـال: يا ليلى أخرجى إليه

ذلك النِّحْيَ (زق السمن) فاملئى له إناءه من السمن، فأخرجته ومعى قدح، فجعلت تصب السمن فيه ونتحدث، فألهانا الحديث وهى تصبُّ السمن. وقد امتلأ القدح ولا نعلم جميعا وهو يسيل حتى استنقعت أرجلنا فى السمن.

وأتيتهم ليلة ثانية أطلب نارا وأنا متلفِّع ببُرْدٍ (ثوب) لى، فأخرجت لى نارًا فى خرقة، فأعطتنيها، ووقفنا نتحدث، فلما احترقت الخرقة قطعت من بردى خرقة وجعلت النار فيها، وكلما احترقت خرقة قطعت أخرى ووضعت بها النار، حتى لم يبق علىَّ من البرد إلا ما وارى (ستر) عورتى وما أعقل ما أصنع.

احتجاب ليلى

كان قيس أول ما علق ليلى كثير الزيارة لها والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات، فلما علم أهلها بعشقه لها منعوه من إتيانها وتقدموا إليه ألاَّ يعود إلى التحدث إليها، فطار عقله، وكان أهله يعزونه عنها ويقولون له: نزوجك أنفس جارية فى عشيرتك، فيأبى إلا ليلى ويهذى بها ويذكرها، فيلومونه ويعذلونه على ما يصنع بنفسه وأكثروا عليه فى الملامة والعذل يوما فقال وقد غلب عليه البكاء:

فواكبدًا من حُبِّ من لا يُحِبُّنى ومِن زَفَراتٍ ما لهنَّ فَناءُ
أتاركَتى للموت أنتِ فميِّتٌ وما للنفوس الخائفاتِ بقاءُ

وذكروا: أن نسوة من عشيرته جلسن إليه، فقلن له: ما الذى دعاك إلى أن أحللت بنفسك كل ما نرى فى هوى ليلى، وإنما هى امرأة من النساء؟ وهل لك فى أن تصرف هواك إلى إحدانا فنساعفك ونجزيك بهواك ويرجع

إليك ما غاب من عقلك وجسمك؟ فقال لهن: لو قدرت على صرف الهوى عنها إليكن لصرفته عنها وعن كل أحد بعدها وعشت فى الناس مستريحا، فقلن له: فما الذى أعجبك منها؟ قال: كل شىء رأيته وسمعته وشاهدته منها أعجبنى. والله ما رأيت شيئا منها قط إلا كان فى عينى حسنا، ولقد جهدت أن يقبح عندى منها شىء أو يسمج أو يعاب لأسلو عنها، فلم أجده، فقلن له: فصفها لنا، فأنشأ يقول:

بيضاءُ خالصةُ البياض كأنها ... قمرٌ توسَّط جُنْحَ ليلٍ مُبْرَدِ
مَوْسُومةٌ بالحسن ذاتُ حواسدٍ ... إن الجمالَ مَظِنَّةٌ للحُسَّدِ

ليلى لا تفى لقيس بوعدها

وذكروا: أن ليلى وعدته أن يزورها ليلة إذا وجدت فرصة لذلك، فمكث مدة يراسلها فى الوفاء وهى تعده وتسوِّفه حتى كان يوم خرج فيه الرجال عن الحىّ، فجلس إلى نسوة من أهلها فى ناحية منها بحيث تسمع كلامه، فحادثهن طويلا، ثم قال: ألا أنشدكن أبياتا صنعتها فى هذه الأيام؟ قلن: بلى، فأنشدهن:

يا للرِّجال لهمٍّ باتَ يَعْرونى ... مُستَطْرفٍ وقديم كاد يُبْلينى
مَنْ عاذِرى من غريم غير ذى عُسُرٍ ... يَأبَى فيمطُلُنى دَيْنى ويَلْوِينى
وما كَشُكرىَ شُكرٌ لو يوافقنى ... ولا مُناىَ سواه لو يُواتينى
أطعتُه وعَصَيتُ الناس كلَّهمُ ... فى أمره وهواه وهْوَ يَعْصِينى

فقلن له: ما أنصفك هذا الغريم الذى ذكرته، وجعلن يتضاحكن من قوله وهو يبكى. فاستحتْ ليلى منهنَّ ورقَّت له حتى بكت، وقامت ودخلت بيتها، وانصرف.

رسول بينه وبين ليلى

قال رجل من عشيرة قيس له وقد تدله فى حبها: إنى ملمٌّ بمنزل ليلى فهل تودعنى إليها شيئا؟ فقال: نعم، قف بحيث تسمعك ثم قل:

اللّـهُ يعـلمُ أن النفسَ هـالكةٌ باليـأس منـكِ ولكنـى أُعزِّيهـا
منَّيْتُكِ النفسَ حتى قد أضرَّ بها واستيقَنَتْ خُلُفًا مما أمنِّيهـا
وساعةٌ منكِ ألهوها وإن قَصُرَتْ أَشْهَى إلىَّ من الدنيـا وما فيهـا

فمضى الرجل ولم يزل يرقب خلوة من ليلى حتى وجدها، فوقف عليها، ثم قال لها: يا ليلى لقد أحسن الذى يقول:

اللّـهُ يعـلمُ أن النفسَ هـالكةٌ باليـأس منـكِ ولكنـى أمنِّيها

وأنشد الأبيات، فبكت بكاء طويلا ثم قالت: أبلغه السلام وقل له:

نفسِى فداؤكَ لو نفسى ملكتُ إذن ما كان غيرُك يَجْزِيها ويُرضيها
صبراً على ما قضاه الله فيكَ على مرارةٍ فى اصطبارى عنكَ أُخفيها

وأبلغ الفتى قيسا البيتين وأخبره بحالها، فبكى حتى سقط على وجهه مغشيًّا عليه، ثم أفاق وهو يقول:

عَجِبتُ لعُرْوةَ العُذْرىِّ أضحى أحاديثاً لقـوم بعـد قـوم
وعُـرْوةُ مـات مـوتا مُسْتَرِيحاً وهـا أنا مَيِّتٌ فى كـل يـومِ

ألسنة السوء

اجتـاز قيس بن ذَريح بقيس بن الملوح وهو جالس وحده فى نادى قومه، وكان كل واحد منهما مشتاقا إلى لقاء الآخر، وكان قيس بن الملوح (المجنون) لا يحـدث أحدا ولا يرد على متكلم جوابا، فسلم عليه قيس بن ذريح، فلم

يرد عليه السلام، فقال له: يا أخى أنا قيس بن ذريح، فوثب إليه، فعانقه، وقال له: مرحبا بك يا أخى، أنا والله مسلوب العقل، فلا تلمنى، فتحدثا ساعة وتشاكيا وبكيا، ثم قال له قيس بن الملوح: يا أخى إن منزل ليلى منا قريب، فهل لك أن تمضى إليها فتبلغها عنى السلام؟ فقال له: أفعل. فمضى قيس بن ذريح حتى أتى ليلى فسلم وانتسب فقالت له: حَيَّاك الله، ألك حاجة؟ قال: نعم ابنُ عمك أرسلنى إليك بالسلام، فأطرقت ثم قالت: ماكنتَ أهلا للتحية لو علمت أنك رسوله، قل له عنى: أرأيت قولك:

أبتْ ليلةُ بالغَيْل يا أمَّ مالكٍ لكم غير حبٍّ صادق ليس يكذب

لقد فضحنى بذكره ليلة الغيل (اسم واد) وأى ليلة هذه؟ وهل خلوت معه فى الغيل ليلا أو نهارا؟ فقال لها ابن ذريح: يا ابنة عم إن الناس تأوّلوا كلامه على غير ما أراد فلا تكونى مثلهم، إنما أخبر أنه رآك ليلة الغيل لا أنه عناك بسوء. فأطرقت طويلا ودموعها تجرى وهى تكفكفها، ثم انتحبت، ثم قالت: اقرأ على ابن عمى السلام وقل له: بنفسى أنت، والله إن وجدى بك فوق ما تجد ولكن لا حيلة لى فيك.

شفقة الأم

لما عشق قيس بن الملوح ليلى وهام بها ترك الطعام والشراب، فأشفقت عليه أمه ومضت إلى ليلى، فقالت لها، إن قيسا قد ذهب حبك بعقله وترك المطعم والمشرب فلو جئته وقتا لرجوت أن يئوب إليه بعض عقله فقالت ليلى: أما نهارا فلا، لأنى لا آمن قومى على نفسى، ولكن ليلا، فأتته ليلا، فقالت له: يا قيس إن أمك تزعم أنك جُننت من أجلى وتركت المطعم والمشرب. فاتق الله وأبْق على نفسك فبكى وقال:

قالتْ جُنِنْتَ على رأسى فقلت لها الحـبُّ أعظمُ ممَّـا بالمجـانينِ
الحـبُ ليس يفيق الدهـرَ صاحبُه وإنما يُصْـرَعُ المجنون فى الحينِ

فبكت معه، وتحدثا حتى كاد الصبح يُسْفر، ثم ودعته وانصرفت. فكان آخر عهده بها.

المهدى يرفض قيسا ويهدر الحاكم دمه

كان قيـس عنـد أبيه الملوح أعظم منزلة من إخوتـه وكان أبوه ذا ثروة، فدفع له خمسـين بعـيرا وراعيها فى مهر ليلى فلم يقبـل أبوها المهدى مع أنه كان أقل منهم ودونهم ثراء، لسـنَّة ذاعت عند العرب، وهى أنهم كانوا يكرهون تزويج اثنين انتشرت الأخبار بمحبتهما.

ولم يكتف المهدى برفضه، فقد أبلغ أمره وعشقه إلى الحاكم، فأهدر دمه إن أتاهم، وتوعده بالقتل إن ألَمَّ بدارها، فقال:

ألا حُجبتْ ليلى وآلى أميرهـا علىَّ يميناً جاهداً لا أزورُهـا
على غير ذنبٍ غير أنِّى أحبُّها وأنَّ فؤادى رهنُهـا وأسيرُهـا

ولما عرف أبوها أن هذا التهديد لا يصرفه عن غشـيان داره وأنه لا يزال يطلب فرصة ارتحل بليلى وأبعد، وجاء قيس عشية فأشرف على الدار، فلم يجدهـا، فقصد مكانها، وألصق صدره به وجعل يمرغ خديه على ترابه وهو يبكى ويقول:

يا صـاحبىَّ ألمَّـا بى بمنزلـةٍ قد مرَّ حينٌ عليهـا أيُّمـا حينِ
إنى أرى رجَعات الحب تَقْتُلنى وكان فى بدئها ما كان يَكْفينى
أُلْقَى من اليأس تاراتٍ فتَقْتُلُنى وللرجـاء بشاشـاتٌ فتُحيينى

جنون قيس بليلى

لما بعد المهدى بابنته ليلى عن قيس ومنازل قومه جُنَّ بها جنونا، فكان لا يعاوده عقله إلا قليلاً، ولم تزل تلك حاله غير مستوحش، إنما يكون فى جنبات الحىّ عاريا منفردا لا يلبس ثوبا إلا خرقةً، وهو يهذى ويخطط فى الأرض ويلعب بالتراب والحجارة، ويجمع العظام حوله، ولا يجيب أحدا سأله عن شىء، فإذا أحبوا أن يتكلم أو يثوب إليه عقله ذكروا ليلى، فيقول: بأبى هى وأمى، ويرجع إليه عقله ويخاطبهم فيجيبونه.

ولما طال على قيس ذلك قال قوم لأبيه: لعل الجن قد أصابته، فكان يأتيه بالتمائم والتعاويذ ويرش عليه الماء، لاعتقاد العرب أن الجن تنفر من ذلك، فكان يأبى هذا الصنيع إباء شديدا وينشد:

وجاءوا إليه بالتعاويذ والرُّقَى ... وصَبُّوا عليه الماء من ألم النَّكْسِ
وقالوا به من أعين الجنِّ نَظْرةٌ ... ولو عقلوا قالوا به أعين الإنسِ

توسط نوفل بن مساحق

كان نوفل بن مساحق يتولى جمع الزكاة من بنى عامر لوالى الحجاز من قبل بنى أمية، فسمع بشأن قيس، فرقَّ له، وذات يوم كان يمر بمنازل قومه، فرآه وهو يلعب بالتراب وقد تعرَّى جسده، فقال لغلام معه: يا غلام هات ثوبا، فأتاه به، فقال لبعض من معه: خذ هذا الثوب، فألقه على ذلك الرجل، فقال له: أتعرفه؟ جعلت فداك. قال: لا، قال: هذا ابن سيد الحىّ، والله ما يلبس الثياب ولا يزيد على ما تراه يفعله الآن، وإذا طُرح عليه ثوب خرَّقه، ولو أنه كان يلبس ثوبا لكان فى مال أبيه ما يكفيه. وحدثه عن أمره: فدعا به نوفل وكلمه، فجعل لا يعقل شيئا يكلمه به،

فقال له قومه: إن أردت أن يجيبك جوابا صحيحا، فاذكر له ليلى. فذكرها له، وسأله عن حبه إياها. فأقبل عليه يحدثه بحديثها ويشكو إليه وجده بها وينشده شعره فيها، فقال له نوفل: هل انتهى بك الحب إلى ما أرى؟ قال: نعم وسينتهى بى إلى أشد مما ترى. فعجب منه وقال له: أتحب أن أزوجك إياها؟ قال: نعم وهل إلى ذلك من سبيل؟ قال نوفل: انطلق معى حتى أقدم على أهلها بك وأخطبها إليك وأرغبهم فى المهر لها. قال قيس له: أتراك فاعلا؟ قال: نعم، قال قيس: سأنظر ما تقول! قال نوفل: لك علىّ أن أفعل ذلك. ودعا له بثياب، فألبسه إياها، وراح معه المجنون كأصحّ أصحابه يحدثه وينشده. فبلغ ذلك عشيرتها، فلقوه فقالوا: يا نوفل لا والله لا يدخل المجنون منازلنا أبدا أو نموت وقد أهدر لنا السلطان دمه، فأقبل بهم وأدبر، فأبوا. فلما رأى ذلك قال للمجنون: انصرف. فقال له المجنون: والله ما وفيت بالعهد، فقال له: انصرافك بعد أن أيأسنى القوم من إجابتك أصلح من سفك الدماء، فقال قيس:

إذا ذُكِرتْ ليلى عَقَلتُ وراجَعتْ ... عَوازِبُ عقلى من هَوًى مُتشعِّبِ
وقالوا صحيحٌ ما بـه طيفُ جنَّةٍ ... ولا لهمُ إلا افتراءُ التكذُّبِ
وشاهدُ وجدى دمعُ عينى وحبُّها ... بَرَى اللحمَ عن أحناء عظمى ومنكبى
وأصبحت من ليلى الغداة كناظرٍ ... مع الصبح فى أعقاب نَجْمٍ مُغرِّبِ

ليلى لا تنسى قيسا

خرج رجل إلى أرض نجد فى طلب بغية له، فإذا هو بخيمة قد رفعت، وكان قد أصابه المطر فعدل إليها، وتنحنح، فإذا امرأة قد كلمته، وقالت له: انزل، فنزل، فقالت: سلوا هذا الرجل من أين أقبل؟ فقال: من ناحية تهامة ونجد، فقالت: أدخل أيها الرجل، فدخل إلى ناحية الخيمة، فأرخت

بينها وبينه سترا، ثم قالت له: أى بلاد نجد وطئت، فقال كلها وطئت، فقالت له: فيمن نزلتَ هناك؟ فقال: ببنى عامر، فتنفست الصُعداء ثم قالت فبأى بنى عامر نزلت؟ فقال: ببنى الحريش (وهم قوم قيس). فاستعبرت، ثم قالت: هل سمعتَ بذكر فتى منهم يقال له: قيس بن الملوَّح ويلقب بالمجنون، فقال: بلى والله وعلى أبيه نزلت، وأتيته، فنظرت إليه يهيم فى تلك الفيافى ويكون مع الوحش ولا يعقل ولا يفهم إلا أن تذكر له فتاة يقال لها ليلى، فيبكى وينشد أشعارا فيها. ولما سمعت ذلك من الرجل رفعت الستر بينها وبينه والتفت الرجل فإذا فِلقَةُ قمر لم تر عينه مثلها، فبكت حتى ظن أن قلبها قد انصدع، فقال لها: اتق الله أيتها المرأة فما قلت بأسا. فمكثت طويلا على تلك الحال من البكاء والنحيب، ثم قالت:

ألا ليتَ شِعرى والخُطوبُ كثيرةٌ متى رَحْلُ قيسٍ مُسْتقِلٌّ فراجعُ
بنفسى مَنْ لا يستقلُّ بنفسه ومَنْ هو إن لم يحفَظِ اللهُ ضائعُ

ثم بكت حتى سقطت مغشية عليها، فقال لها: من أنت يا أمة الله؟ وما قصتك؟ قالت: أنا ليلى صاحبته المشئومة والله عليه غير المواسية له.

لقاء مفاجئ

مر المجنون فى توحشه بحىّ ليلى، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته فصعق وخرَّ مغشيا عليه، فأقبل فتيان من عشيرة ليلى فأخذوه ومسحوا التراب عنه وأسندوه إلى صدورهم، وسألوا ليلى أن تقف له وقفة، فرقت لما رأته به، وقالت له: أعذر علىَّ بما أنت فيه، ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسى منه، فأفاق وجلس، وقال: هيهات إن دائى ودوائى أنت وإن حياتى ووفاتى لفى يديك، ولقد وكَّلت بى شقاء لازما وبلاء طويلا، ثم بكى وأنشأ يقول:

أقول لأصحابى هى الشمس ضوؤُها قريبٌ ولكن فـى تَناوُلهـا بُعْـدُ
لقـد عارضتْنا الريحُ منهـا بنفحـةٍ عـلى كَبدِى من طيبِ أرواحها بَرْدُ
ومـازلتُ مَغْشيًا علىَّ وقـد مَضـتْ أنـاةٌ وبـا عنـدى جـوابٌ ولا رَدُّ
عِدِينى- بنفسى أنتِ - وعداً فربما جَلا كُربةَ المكروبِ عن قلبه الوعـدُ

زواج ليلى

وتسـامع العرب بليلى وعشـق قيس بن الملوح لها وجنونه بها، فخطبها كثيرون، فلم يرضهم أهلها، وخطبها شاب موسر من ثقيف (الطائف) فزوجوه بها، وأخفوا ذلك عن المجنون، ثم نمى إليه طرف منه فقال:

دعوت إلهى دعـوةً ما جهلتُهـا وربِّى بما تُخفى الصـدورُ بصيرُ
فقد شاعت الأخبارُ أنْ قد تَزوَّجتْ فهـل يأتِيَنِّى بالطـلاق بشِـيرُ

وبلغه أن أهلها يريدون نقلها إلى الثقفى فقال:

كأن القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغْدَى بلَيْـلَى العـامريَّـة أو يُـرَاحُ
قطـاةٌ غَرَّهـا شَـرَكٌ فباتتْ تجاذِبُـه وقـد عَـلِقَ الجَناحُ

وكان ينشد وهو يبكى ويتفجع:

أمزمعـةٌ للبين ليلى ولـم تمـت كأنك عما قـد أظـلّك غافـلُ
ستعلم إن شطَّتْ بهم غُربَةُ النَّوَى وزالـوا بليـلى أن لُبَّـك زائـلُ

ولمـا أرادوا الرحيـل بها أخذه أبوه، ووقف به مسـتترا، حتى ينظر إليها وهى راحلة مع زوجها وقومها، لعل ذلك يشـفى شـيئا من غليله. فلما رآهم يرتحلون بكى أحرَّ بكاء ونشـج أحرَّ نشـيج، وأنشد فى صوت متقطع:

ألا أيها القلبُ الذى لجَّ هائماً بليلى وليدا لم تُقطَّع تمائِمُه
أفِقْ قد أفاق العاشقون وقد أَنَى لما بك أن تلقى طبيبا تُلائمُه
فما لَكَ مسلوبَ العَزاء كأنما ترى نَأْىَ ليلى مَغْرَماً أنت غارِمُه

فقال له أبوه: ويحك! إنما جئت بك متخفيا ليتروّح بعض ما بك بالنظر إليهم، فإذا فعلت ما أرى عُرفت، وقد أهدر السلطان دمك إن مررت بهم، فأمسك أو فانصرف، فقال: ما لى سبيل إلى النظر إليهم يرتحلون وأنا ساكن غير جازع ولا باك. فانصرف بنا، ومضى وهو يقول:

ذُدِ الدمع حتى يظعن الحىُّ إنما دموعك، إن فاضتْ، عليك دليلُ

رفاق قيس يحاولون التسرية عنه

اجتمع إلى قيس بعد زواج ليلى ورحيلها بعض رفاقه ممن كان يألفهم ويأنس إليهم قبل تولهه بها، فعزموا عليه أن يخرج معهم متنزهين فى أحياء العرب للترويح عن نفسه. ولبى رغبتهم، فسار معهم تعاوده الصحة دورا والجنون دورا، ومروا فى طريقهم بجبلى نَعْمان فقال له بعضهم: هذا جبلا نعمان وكانت ليلى تنزل بهما، فقال: فأى الرياح يأتى من ناحيتهما؟ فقالوا: الصَّبا، قال: فوالله لا أريم (أترك) هذا الموضع حتى تهب الصبا، فأقاموا معه ثلاثة أيام حتى هبت، فانطلق معهم، وأنشأ يقول:

أيا جبلى نعمان باللّه خَلِّيا سبيل الصَّبا يخلصْ إلىَّ نسيمُها
أَجِدْ بَرْدَها أو تَشْفِ منى حرارة على كبدٍ لم يبق إلا صميمها
فإن الصبا ريحٌ إذا ما تنسَّمتْ على نفس محزونٍ تجلَّت همومها

وبينما كانوا يسيرون أمطرتهم السماء مطرا شديدا أعقبته سيول كثيرة، جعلت عبراته تسيل، وأنشد بصوت حزين لم ينسه رفاقه ولا نسوا حرقته أبدا:

جرى السَّيلُ فاستبكانيَ السيلُ إذ جرى ... وفاضَتْ لـه من مُقْلَتيَّ غُروبُ
وما ذاكَ إلا حينَ أيقنتُ أنه ... يكون بوادٍ أنتِ فيه قريبُ
يكون أُجاجاً دونكم فإذا ... انتهى إليكم تَلقَّى طيبَكم فيطيبُ
أظَلُّ غريبَ الدار في أرض عامرٍ ... ألا كلّ مهجورٍ هناك غَريبُ
وإن الكثيبَ الفردَ من أيمن الحِمَى ... إليَّ وإن لم آتِه لحبيبُ
ولا خَير في الدنيا إذا أنتَ لم تَزُرْ ... حبيباً ولم يَطرَبْ إليكَ حبيبُ

وغفلوا عنه ليلة، ثم افتقدوه فلم يجدوه، فركب ابن عم له في طلبه، فرآه عند مشرعة ماء وهو يتحدث إلى رجلين قد صادا ظبية، وربطاها بحبل، وعيناه تدمعان، يقول لهما: حُلاَّها وخذا مكانها بعيرى، وهو ينشد:

يا صاحبيَّ اللذين اليوم قد أخذا ... في الحبل شِبْها لليلى ثم غَلاَّها
إني أرى اليوم في أعطاف شاتكما ... مشابها أشبهتْ ليلى فحُلاَّها

فحلَّ الرجلان وثاقها فولت تعدو هاربة مذعورة، فقال:

أيا شِبهَ ليلى لا تخافي فإنني ... لكِ اليومَ من وحشيَّةٍ لَصَديقُ
ويا شبه ليلى لو تَلبَّثتِ ساعة ... لعل فؤادي مِنْ جَواه يُفِيقُ
تَفِرُّ وقد أطلقتُها من وَثاقِها ... فأنتِ لليلى لو عَلِمْتِ طَليقُ

وحاول ابن عمه أن يعود به إلى رفاقه فأبى إلا الرجوع إلى منازل قومه، فرافقه، وهو في طول طريقه يئن ويتفجع وينشد:

تذكَّرتُ ليلى والسِّنينَ الخواليا ... وأيامَ لا أُعْدِي على الدهرِ عاديا
خليليَّ لا واللّه لا أملكُ الذي ... قضى اللهُ في ليلى ولا ما قَضَى لِيا
قضاها لغيري وابتلاني بحبِّها ... فهلاَّ بشيءٍ غير ليلَى ابتلانيا
قضى الله بالمعروف منها لغيرها ... وبالشوق مني والغرام قضى ليا
وما أُشْرِف الأيفاع إلا صبابةً ... ولا أنشد الأشعارَ إلا تداويا

أَعُـدُّ الليـالى ليلـةً بعـد ليلـةٍ وقـد عشـتُ دهـراً لا أَعُدُّ الليـاليا
أُحِـبُّ من الأسماء ما وافق اسمَها وأشـبهَهُ أو كـان منـه مُدانِيـا
وإنى لأسـتغشى وما بىَ نعسـة لعـل خيالا منكِ يلقـى خياليـا
هـى السـحرُ إلا أنَّ للسحر رُقْيَةً وإنِّىَ لا أُلْفِـى لهـا الدهـرَ راقِيا

تردده على جبل التوباد

كان قيس وليلى، وهما صبيان، يرعيان أغنام أبويهما عند جبل التوباد، وهـو جبل فى ديارهما، فلمـا ذهب عقله وتوحش كان يجئ إلى ذلك الجبل فيقيم فيه، فإذا تذكر الزمن الذى كان يطيف به هو وليلى جزع واسـتوحش وهام على وجهه حتى يأتى نواحى الشـام، فـإذا ثاب إليه عقله رأى ديارا ومواضـع لا يعرفها، فيقول للناس الذين يلقاهـم: بأبى أنتم أين التوباد من أرض بنى عامر؟ فيقولون له: وأين أنت من أرض بنى عامر؟ أنت بالشـام، عليك بنجم كذا فى السـماء، فسـر على جهته حتى تصـل إلى ديار قومك. فيمضـى على وجهه متبعا ذلك النجم، حتى يقع بأرض اليمن، فيرى ديارا ينكرها وقوما لا يعرفهم، فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر، فيقولون له: وأيـن أنت مـن أرض بنى عامر؟ عليك بنجم كذا وكـذا. ولا يزال على ذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه بكى وقال:

وأجْهَشْتُ للتَّوْبَادِ حين رأيتـهُ وكَـبَّر للرحمـن حينَ رآنـى
وأذرَيْتُ دمعَ العين لمَّـا عرفتـه ونادى بأعـلى صـوتِه فدعـانى
فقلتُ له: قـد كان حولكَ جيرةٌ وعهـدِى بذاكَ الحىِّ منذ زمـانِ
فقال: مَضَوْا واستودعُونى حديثَهم ومن ذا الذى يبقَى على الحدَثانِ
وإنى لأبكى اليومَ من حَذَرى غداً فِراقَـكَ والحـيَّانِ مؤتلفـانِ
سِجـالاً وتَهْتَانـا ووَبْلاً وديمـةً وسَـحًّا وتَسْـكاباً إلى هَمَـلانِ

رجل يذم له ليلى

سأل الملوح أبو المجنون رجلا قدم من الطائف أن يمر بالمجنون فيجلس إليه ويخبره أنه لقى ليلى وجلس إليها ووصف له صفات منها ومن كلامها يعرفها المجنون، وقال له حدثه بها، فإذا رأيته اشرأبَّ لحديثك واشتهاه فعرِّفْه أنك ذكرته لها ووصفت ما به فشتمته وسبَّته وقالت إنه يكذب عليها ويشهِّر بها بفعله، وإنها ما اجتمعت معه قط كما يصف. ففعل الرجل ذلك، وجاء إليه فأخبره بلقائه لها، فأقبل عليه وجعل يسأله عنها، فيخبره بما أمره به الملوّح فيزداد نشاطا ويثوب إلى عقله، إلى أن أخبره بسبِّها إياه وشتمها له، فقال وهو غير مكترث لما حكاه عنها:

تمرُّ الصَّبَا صَفْحاً بساكن ذى الحِمَى ... ويصدع قلبى أن يهبَّ هبوبُها
قريبةُ عهدٍ بالحبيب وإنما ... هوى كل نفسٍ حيث حلَّ حبيبُها
حلالٌ لليلى شَتْمُن وانتقاصنا ... هنيئا ومغفورٌ لليلى ذنوبُها

حجه مع أبيه إلى الكعبة

ولما سلب المجنون عقله وطال عليه جنونه قال الحىّ لأبيه: احجج به إلى مكة وادع الله عز وجل له، ومره يتعلق بأستار الكعبة، فيسأل الله أن يعافيه مما به ويبغِّضها إليه، فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء. وبينما الملوح سائر مع ابنه فى بعض الأودية إذا حمام يتجاوب، فبكى المجنون وأنشد:

ألا يا حَمامَ الأَيْكِ ما لكَ باكيا ... أفارقتَ إلفاً أم جفاكَ حبيبُ
دعاكَ الهوى والشوقُ لما ترنَّمتْ ... هَتُوفُ الضُّحَى بين الغصون طَروبُ
تُجاوِبُ وُرْقاً قد سمعْنَ لصوتها ... فكلٌّ لكلٍّ مُسْعِدٌ ومُجِيبُ

وكان أبوه يرق له، فيقبل عليه فى أثناء سيرهما يخاطبه ويسلّيه ويعظه، وهو ينظر إليه كأنه لا يفهم ما يقول فقد غمره ما هو فيه من الهوى والعشق.

فلما طال خطابه إياه قال له: يا بنى أما لكلامى جواب، فقال له: والله يا أبى ما علمت أنك كلمتنى فاعذرنى فإنى كما ترى مذهوب بى، ثم أنشأ يقول:

وشغلتُ عن فهم الحديث سوى ... ما كان منكِ فإنه شُغْلِى
وأُديم لَحْظَ محدِّثى ليرى ... أن قد فهمت وعندكم عقلى

ولما صار مع أبيه بمكة كان يصنع صنيعا يرحمه منه عدوه، إذ يقول أخْرِجونى إلى الجبال لعلى أتنسم صبا نجد، فيخرجونه، فيتوجه نحو نجد، ويتنفس تنفسا يظن معه أن كبده قد انصدعت. وكان لا يلقى نجديا حتى يسائله عن وديان نجد واد واد وموضع موضع، فيخبره وهو يبكى أحر بكاء وأوجعه للقلب، قائلا:

ألا حبذا نجدٌ وطيبُ ترابها ... وأرواحها إن كان نجدٌ على العهد

ولما انتهى إلى منى سمع صائحا فى الليل يصيح: يا ليلى، فصرخ صرخة ظنوا معها أن نفسه قد تلفت وسقط مغشيا عليه، فلم يزل كذلك حتى أصبح، ثم أفاق حائل اللون ذاهلا، فأنشأ يقول:

عرضت على قلبى العزاء فقال لى ... من الآن فايْأس لا أغرُّك بالصبر
إذا بانَ مَنْ تهوى وأصبحَ نائيا ... فلا شىء أجدى من حلولك فى القبر
وداع دعا إذ نحن بالخَيْف من مِنًى ... فهيَّج أشجان الفؤاد وما يدرى
دعَا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائرا كان فى صدرى
دعا باسم ليلى ضلَّل الله سعْيَه ... وليلى بأرضٍ عنه نازحةٍ قَفْرِ

ولما هبط من منى قال له أبوه: تعلق بأستار الكعبة وسل الله عز وجل أن يعافيك من حب ليلى، فتعلَّق بأستار الكعبة وقال: اللهم زدنى بليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا، وقال فى بعض دعائه:

دعـا المحرمـون الله يستغفرونه بمكـة وهنـا أن تمحَّى ذنوبُهـا
وناديتُ أَنْ يا ربِّ أوَّل سُـؤْلتى لنفسىَ ليـلى ثـم أنتَ حسـيبُها
فإن أُعْطَ ليلى فى حياتىَ لا يتب إلى الله خلـق توبـةً لا أتـوبُهـا
وكم قائل قـد قـال تُبْ فعصيته وتلك لعمـرى توبـةٌ لا أتوبهـا
فيا نفسُ صبرا لست والله فاعلمِى بأوَّل نفسٍ غـابَ عنها حبيبُهـا

وهـام من حينئذ واختلط عقله، فكان ينطلـق فى الصحراء مع الوحش، لا يأكل إلا ما ينبت فى الصحراء من بقل ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها. وطال شَعْر جسده ورأسه وألفته الوحوش فكانت لا تنفر منه.

مع نوفل بن مساحق ثانية

لم يزل نوفل بن مساحق من يوم ذهابه مع قيس إلى أهل ليلى يخطبها له منهم متطلبا لأخباره جامعا لأشعاره ويقال إنه سأل عنه فى سنة من السنين، فقال له أهله: توحش وما لنا به عهد ولا ندرى إلى أين صار فخرج من عندهم وأوغل فى البادية يتصيد الوحش، ومعه جماعة من أصحابه، حتى إذا كان ببعض النواحى إذا هو بأراكة (شجرة كبيرة) عظيمة وقد بدا منها قطيع ظباء وفيها شـخص إنسان يُرَى من خلل تلك الأراكة، فعجب أصحابه من ذلك، وعرفـه نوفل. فنزل عن دابته وتخفف من ثيابه وخرج يمشـى رويدا، حتى أتى الأراكة، فارتقى حتى صار فى أعلاها، وأشرف عليه وعلى الظباء، فإذا به قد تدلّى الشعر على وجهه. فلم يكد يعرفه إلا بعد تأمل شديد، وهو يرتعى من ثمر تلك الأراكة، فرفع رأسه، فتمثل نوفل ببيت من شعره:

أتبكى على ليلى ونفسُك باعدتْ مـزارك من ليلى وشِعباكما معـا

فنفرت الظباء واندفع فى باقى القصيدة ينشدها، فى أحسن نغمة وأجمل صوت، وهو يقول:

وما حَسَنٌ أن تأتىَ الأمـر طائعا وتَجْزَعَ أَنْ داعى الصبابةِ أسمعا
وأذكرُ أيـامَ الحِمَـى ثم أنثَنِـى على كبِدى من خشيةٍ أن تَصدَّعا
وليست غشيَاتُ الحِمَى برواجعٍ عليكَ ولكن خَـلِّ عينيكَ تَدْمَعا

واسترسـل فى إنشاد القصيدة، ثم سقط مغشيا عليه، فتمثل نوفل ببعض شعره، فرفع رأسه إليه، وقال له: من أنت حَيَّاك الله؟ فقال: أنا نوفل بن مسـاحق، فحياه، ثم سنحت له الظباء، فتركه وقام يعدو فى إثرها لا يلوى على شىء. ومضى نوفل إلى أصحابه فحدثهم بما كان من أمره معه.

نهاية المجنون

ظـل قيـس يهيم فى فيافى نجد مع الوحـوش، وكان يقترب أحيانا من حمـى بنى عامر، فيتعهده أهله ويرسـلون إليه بالطعـام مع حاضنة له كان يأنس لها. وروى أصحاب الأخبار أن رجلا من قبيلة بنى مرة خرج إلى أرض بنى عامر ليلقاه، فلما سـألهم عنه دلوه على فتى من الحىّ كان له صديقا، وقالوا إنه لا يأنس إلا به ولا يأخذ أشعاره عنه إلا هو. فأتاه، فسأله أن يدله عليه، فقال له: إن كنت تريد شعره فكل شعر قاله إلى أمس عندى وأنا ذاهب إليه غدا، فإن كان قال شيئا أتيتك به. فقال له: بل إنى أريد لقاءه، فقال: إننـى إن جئـت معك نفر منك ونفر منى وذهب شـعره، فقال له: بل دلنى عليـه وأنا أذهب إليه وحدى. فقال له: اطلبه فى هذه الصحارى فإذا رأيته فادن منه مستأنسا ولا تظهر له أنك تهابه، وستراه يتهددك ويتوعدك بشىء يريـد أن يرميك به، فلا يروعنك، واصرف بصرك عنه والحظه أحيانا، فإذا رأيته قد سكن من نفاره، فأنشده شعرا غزلا فإنه يسكن إليك.

وخـرج الرجل فطلبه يومه إلى العصر، فوجده جالسـا على رمل قد خط فيـه بإصبعه خطوطا، فدنا منه غير منقبض فنفر منه نفور الوحش من الإنس

وكانت إلى جانبه أحجار، فتناول حجرا منها، فأعرض عنه الرجل. ومكث قيس ساعة كأنه نافر يريد القيام. ولما طال جلوس الرجل سكن فأقبل يخط بإصبعه، فاتجه إليه، وقال: أحسن والله من يقول:

وإنى لَمُقْنٍ دمعَ عَيْنَىَّ بالبُكا حِذَارَ الذى قد كان أو هو كائن

فأقبل على الرجل يبكى حتى ظن أن نفسه قد فاضت وحتى رأى دموعه قد بلّت الرمل الذى بين يديه، وأنشأ يقول:

وأدْنيتِنى حتى إذا ما سَبَيتِنى بقولٍ يُحِلُّ الوحش سَهْلَ الأباطحَ
تناءيْتِ عنّى حينَ لا لىَ حيلةٌ وخَلَّفْتِ ما خلَّفتِ بين الجوانحَ

ثم سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عن الرجل. وعاد إليه من غد فطلبه فلم يجده، وجاءت حاضنته التى تأتيه بالطعام فوجدت ما تركته له بالأمس على حاله. ولما كان فى اليوم الثالث غدا عليه وجاء أهله معه فطلبوه جميعا. فلم يجدوه. وفى اليوم الرابع تتبعوا أثره حتى وجدوه فى واد كثير الحجارة وهو ميت بين تلك الحجارة. فاحتملوه وغسلوه وكفنوه ودفنوه.

فجيعة أهله به

لم تبق فتاة من بنى عامر إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه، واجتمع فتيان الحىّ يبكون عليه أحر بكاء وينشجون أشد نشيج، وحضرهم حىّ ليلى معزين وأبوها معهم، فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه، وجعل يقول: ما علمت أن الأمر يبلغ كل هذا، ولكنى كنت امرأ عربيا أخاف العار وقبح الأحدوثة فزوجتها وخرجتْ عن يدى، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده ولاحتملت ما كان فى ذلك. وما رُئى يوم كان أكثر باكيا وباكية على ميت منه، ويقال إنهم لما حملوه وجدوا خرقة كتب فيها:

ألا أيها الشيخُ الذى ما بنا يرضَى شقيتَ ولا هُنِّيتَ من عيشكَ الخَفْضا
شَقِيتَ كما أشقَيتنى وتركتنى أهِيمُ مع الهُلاَّكِ لا أطْعَمُ الغَمْضا

موت ليلى

لما بلغ ليلى نبأ وفاة المجنون بكته بكاء مرا، وظلت تندبه أياما، وراجعها زوجها «ورد»، فلم تستمع إليه، بل تمادت فى حزنها، فقال لها غاضبا: والله لقد هممت بتخلية سبيلك، فقالت: لوددت أنك فعلت وأنى عمياء. فوالله ما تزوجتك رغبة فيك، ولقد كنت آليت على نفسى ألاَّ أتزوج غير قيس أبدا، ولكن أبى غلبنى على أمرى. ووالله إنى لزائرة قبر قيس وفاء له. وتجهزت للمسير، ورحلت، حتى نزلت فى منازل قوم المجنون، فرآها أهله، فجاءوها مسلِّمين، فسألتهم عن قبره، فعرفوها به، فذهبت إليه وبكت وناحت بقول المجنون:

لقد عنَّيتنى يا حبَّ لَيْلَى فقَعْ إما بموتٍ أو حياةِ
فإن الموتَ أيسرُ من حياةٍ منغَّصةٍ لها طعمُ الشتاتِ
وقالَ الآمرونَ تَعزَّ عنها فقلتُ نعم إذا حانَتْ وفاتى

ثم قالت: أما أنى لا أتعزى عنك يا حبيبى ولا أسلوك أبدا، وأنَّت ورفعت صوتها تقول:

أبْلَى الثَّرى وترابُ الأرض جِدَّته وزادنى الموتُ أشجانا على شجنى
أبكى عليه حنينا حين أذكره حنينَ والهةٍ حنَّت إلى سَكنِ
أبكى على من حَنَتْ ظهرى مصيبتُه وَطَيَّرَ النومَ عن عينى وأرَّقنى
والله لا أنسَ حبى الدهر ما سجعتْ حمامةٌ أو بكى طَيْرٌ على فنَنِ

وجعلت تتردد على قبره أياما، وتمكث عنده باكية إلى الغروب. وأتاها زوجها، فاعتذر لها، وبالغ فى اعتذاره. فلم تقبل منه، وظلت أربعين يوما

تخـرج إلى قبر قيس وتندبـه، حتى إذا كان اليوم الأخـير زادت فى البكاء والعويل، وألصقت خدها مرارا بالقبر وهى تصيح بأعلى صوتها:

كفـى حَزنـا أنـى أروح بحسـرةٍ وأغدو على قبرٍ ومن فيه لا يدرى
فيا نفس ذوقى حَتْف عمرك عنده ولا تبخلى بالله يا نفس بالعمـر
فما كان يأبى أن يجـود بنفسـهِ ليفديَنى لو كنت صـاحبة القبر

وأغرقـت فى النـدب والنحيب، وانكبت على القبر تقبلـه وتعانقه، ثم شهقت شهقة مديدة، وصمتت إلى الأبد. وحُركت، فإذا هى قد ماتت.

❑❑❑

جَمِيل وبُثَيْنَة

أول الحب

فى مساكن بنى عذرة حول تيماء ووادى القرى بشمالى الحجاز نشأ جميل وبثينة، وأول ما كان من تعلق جميل بصاحبته أنه أقبل يوما بإبل له حتى أوردها ماء فى واد يسمى وادى بغيض، وكان ينزل به قوم بثينة، وتصادف أن كانت هى وإحدى صواحبها تردان الماء، تستقيان منه، فمرتا على بعير له، فنفرهما، فتعرضت لجميل ببعض القول، فوقعت من حينئذ فى نفسه، وأخذ ينظم فيها بعض غزله ونسيبه.

ولما عرفت بثينة أن جميلا أحبها ونسب بها حلفت لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه أبدا، فكان يأتيها عند غفلات الرجال، فيتحدث إليها ومع أخواتها، وظلا على ذلك حينا طويلا يتلاقيان ويتشاكيان الهوى.

بأعين أبيها وأخيها

وسعت جارية لبثينة بها إلى أبيها وأخيها، وقالت لهما إنها واعدت جميلا الليلة، وهى معه الآن، فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياه جالسا بعيدا عنها بحيث تسمع حديثه، وهو يشكو إليها بثه وحبه، وفى أثناء حديثه قال لها: يا بثينة أرأيت ودّى إياك وشغفى بك ألا تجزينه؟ قالت: بماذا؟ قال: بم يكون بين المتحابين، فأنكرت عليه قوله. فقال: والله ما أردت

قبيحا، إنما أردت أن أبلوك. ولو رأيت منك مساعدة لى لضربتك بسيفى هذا وهجرتك هجر الأبد. أو ما سمعت قولى:

وإنى لأرضى من بُثينةِ بالذى ... لو أبصرهُ الواشى لَقَرَّتْ بلابلُهْ
بِلاَ، وبأَنْ لا أستطيعَ، وبالمُنى ... وبالأملِ المرجوِّ قد خابَ آملُهْ
وبالنظرةِ العَجْلى وبالحَوْل تنقضِى ... أواخرُه لا تلتقِى وأوائلُه

فقال أبوها لأخيها: قم بنا فما وجدنا عليهما من ريبة. وانصرفا وتركاهما. والتفت جميل إلى بثينة وقال:

لقد قلت فى حبى لكم وصبابتى ... محاسنَ شعرٍ ذِكرهن يطولُ
فإن لم يكن قولى رضاك فعلِّمى ... هَبوبَ الصَّبا يا بَثْنَ كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالُك لحظةً ... ولا زال عنها، والخيالُ يزول

وما زالا يتحدثان حتى أصبحا فودعها وداع المحب الوامق.

هجر ثم وصل

وحدث يوما أن أقبلت بثينة على فتى من عشيرتها، لترى أثر هذا الإقبال فى نفس جميل. فأنشد توا:

وعُدْنا كأنَّا لم يكن بيننا هوى ... وصار الذى حلّ الحبال هَوَى لها
وقالوا نراها يا جميلُ تبدَّلتْ ... وغيَّرها الواشى فقلت: لعلَّها

وذهب يندب حظه فى أشعار كثيرة، يذكر فيها هجرها وأنها لم تحافظ على عهدها له، وقال فيما قال:

يا ليتنى ألقى المنيَّة بغتةً ... إن كان يومُ لقائكم لم يُقْدَرِ
أو أستطيع تجلّداً من ذِكركم ... فيفيق بعض صبابتى وتفكُّرى
يهواكِ ما عشتُ الفؤاد فإن أمُتْ ... يَتْبع صَدى صداكِ بين الأقْبُرِ

ورقَّت له، فواعدته، والتقيا، وأخذ كل منهما يشكو صاحبه. وقد بلغ الأمر من جميل كل مبلغ، فأنشأ يقول:

لقد خفتُ أن يغتالنى الموتُ عنوة وفى النفس حاجاتٌ إليك كما هيا
وإنى لتَثْنينى الحفيظةُ كلما لقِيتُكِ يومًا أن أبثَّك ما بيا

فالتفتت بثينة إلى مولاة لها كانت معها وقالت لها: ما أحسن الصدق بأهله، ونظرت إلى جميل وقالت له: أنشدنى قولك:

تظل وراء السِّتر تَرْنُو بلحظها إذا مرَّ من أترابها من يروقها

فأنشدها إياها فبكت، وقالت: كلا يا جميل ومن ترى أنه يروقنى غيرك.

أهل بثينة يمنعون جميلاً من لقائها

شاع شعر جميل فى بثينة، وكان من عادة العرب حين يكثر شاعر من غزل بفتاة أن يمنعوه من لقائها حتى لا يفضحهم بها. فتعرض له أبوها وأخوها يتهددانه بالقتل إن هو عاد إلى صبوته بها وفضيحتها فى أحياء العرب. فكان يقول: والله القتل أحبُّ إلىَّ من عدم لقائها، وإنى لأتمنى الموت فيها وينشد:

فليت رجالا فيك قد نَذروا دمى وهمّوا بقتلى يا بثينَ لَقُونى
إذا ما رأَوْنى طالعا من ثنيَّةٍ يقولون: من هذا وقد عرفونى
يقولون لى: أهلا وسهلا ومرحبا ولو ظَفِروا بى ساعةً قتلونى

وكانوا كلما نمى إليهم أنه قريب من دارهم حرسوها ومنعوها من لقائه، فكان يظن أنها هجرته، وكان نساء الحى يقرِّعْنه بذلك ويقلن له إنها مشغولة

بغيرك، وإنما حصلت منها على الباطل والكذب، وغيرها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظى بها، فكان يقول:

منَّيتِنـــى فلـــويْتِ مـــا منيتنـــى ... وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجلِ
وتثاقلتْ لمـــا رأت كَلَفِى بهـــا ... أحـــبِبْ إلىّ بذاكَ مـــن متثاقـــلِ
وأطعـــتِ فىّ عـــواذلا فهجرتِنـــى ... وعصيتُ فيكِ وقد جهَدْنَ عواذلى
حـــاولنَنى لأبُتَّ حبـــلَ وصـــالكم ... منى، ولستُ وإن جَهَدْن بفاعـــلِ
ويقلـــنْ إنَّك قـــد رضيتَ بباطـــلٍ ... منها فهل لك فى اجتناب الباطلِ
ولَباطـــلٌ مما أحـــبُّ حديثَـــهُ ... أشهَـــى إلىَّ مـــن البغيض الباذلِ
ليُزِلْـــن عنكِ هـــواى ثم يَصِلْنَنى ... وإذا هَـــوِيتُ فما هـــوايَ بزائـــلِ

لقاء على غير موعد

ظل جميل ممنوعا من لقاء بثينة مدة وهو لا يتعرض لها بجهده، فلا يصل إليهـــا، وبينما هو ذات ليلة جالس فى أشـــجار بالقرب من حيها، وقد أقام فيها ثلاث ليال ينتظرها، وإذا بشخص قد أقبل إليه، فانتضى سيفه خائفاً، وإذا هـــى بثينـــة، فتعانقا طويلا. وجلســـا صامتين، وجميل لا يســـتطيع أن يحدثها ولا أن يراجعها كلمة حتى أســـفر الصبح، فودع كل منهما صاحبه، ولم يلبث أن ذكر ما كان فيه فقال:

وإنْ تَكُ قد شطَّتْ نَواها وقد نأت ... فإن النَّـــوَى مما تُشِـــتُّ وتجمـــعُ
وإن يك طولُ الحب يا قلب نافعى ... فقد طالما أحببت والصـــبر أنفـــع
ولست كمن يُفْشى على الخِدن سرَّه ... وعندى له فى الصدر سرٌّ وموضع
وأنســـى إذا لاقيتهـــا بخلائهـــا ... من القول ما قد كنت بالأمس أجمعُ
فيا رب حَبِّبْنى إليها وأعطنى المـــ ... ـــودة منهـــا أنت تعطـــى وتمنـــعُ

وإلا فصـبِّرْنى وإن كنت كارهـا ... فإنى بهـا يا ذا المعـارجَ مولـعُ
وفى الصبر عن بعض المطامع راحةٌ ... إذا لم يكن فى الشىء ترجوه مطمعُ

رسول إلى بثينة

كان كثـير صاحب عزة يألف جميلا ويلزمـه، فلقيه يوما، فقال له: من أيـن أقبلـت؟ فقال: من عند أبى الحبيبة - يعنـى بثينة - فقال له: وإلى أيـن تمضـى؟ فقال إلى الحبيبة - يعنى عـزة - فقال له: لابد من أن ترجع عودك على بدئك، فتأخذ لى موعدا من بثينة، فقال كثير: عهدى بها وبأبيها السـاعة، وأسـتحى أن أرجع، فقال جميل: لابد من ذلك. فقال له كثير: فمتى كان آخر عهدك بها؟ قال جميل: فى أول الصيف، وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدَّوْم، إذ خرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابا، فلما أبصرتنى أنكرتنـى، وضربت بيديهـا إلى ثوب فى الماء فغطَّت نفسـها به، وعرفتنى الجاريـة فأعـادت الثوب فى الماء وتحدثنا حتى غابت الشـمس. وسـألتها موعدا، فقالت: أهلى سـيرتحلون عن قريب. وما وجدت أحدا آمنه فأرسله إليها. فقال كثير له: فهل لك فى أن آتى الحى فأتمثل بأبيات من شعر أذكر فيهـا هذه العلامة إن لم أقدر على الخلـوة بها؟ قال جميل: ذلك الصواب. فأرسله إليها، فقال له كثير: انتظرنى.

ثـم خـرج كثير حتى أناخ بـدار بثينة ناقته، ورآه أبوهـا، فقال له: ما وراءك؟ قـال كثير: ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك، قال هاتها، قال كثير: فأنشدته وبثينة تسمع:

فقلت لها يا عزّ أرسلَ صاحبى ... إليكِ رسـولا والموكَّل مُرْسَـلُ
بأن تجعـلى بينى وبينكِ موعدا ... وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعـل
وآخـر عهـدى منك يوم لقيتنى ... بأسفل وادى الدوم والثوبُ يغسلُ

فضربت بثينة جانب خدرها، وقالت: اخسأ، اخسأ، فقال أبوها: ما الذى بك يا بثينة؟ قالت: كلب يأتينا إذا نام الناس من وراء الرابية. ثم قالت للجارية: ابغينا من الدَّوْمات حطبا لنذبح لكثير شاة ونشويها له، فقال كثير: أنا أعجل من ذلك.

وراح كثير إلى جميل فأخبره، فقال له جميل: الموعد الدَّوْمات. وقالت بثينة لبنات خالتها: أم الحسين وليلى ونجية وكانت قد أنست إليهن واطمأنت بهن: إنى قد رأيت فى لحن نشيد كثير أن جميلا معه. وخرج كثير وجميل حتى أتيا الدومات، وجاءت بثينة ومن معها، فما برحوا حتى برق الصبح، فكان كثير يقول: ما رأيت مجلسا قط أحسن من ذلك ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر، ما أدرى أيهما كان أفهم.

مبارزة

خطب جميل بثينة من أبيها فرده، لكراهة العرب أن يزوجوا بناتهم ممن يشهِّرون بهن ويتغزلون فيهن، فخطبها ابن عم لها يسمى نبيها، فوعده أبوه أن يزوجها منه، غير أنها لم ترضه لنفسها إذ كان قبيحا دميما فى إحدى عينيه نكتة بياض قبيحة. وحدث أن خرج جميل وابنا عمه: روق ومسعدة وخرج معهما نبيه إلى الصيد، فمر بهم رجل من قبيلة خزاعة كان قويا يهوى المبارزة والمصارعة، فقال له نبيه: هل لك فى مصارعتى؟ قال: ذلك إليك، فتصارعا، فصرعه الخزاعى وجلس على صدره. فضحك جميل وصاحباه من ذلك. فقام نبيه إلى الخزاعى، فقال له: عاودنى، فقال: لا أفعل، فتعلَّق به. فقال له جميل: ماذا تريد من الرجل؟ طالبته بالصراع، فصرعك، والمعاودة إليه إن أرادها، وإلا فلا سبيل لك عليه. قال: أفتصارعنى يا جميل؟ قال: وما تريد بذلك؟ قال: أحبه وأشتهيه. قال جميل: فوالله مالك فيه خير. فإن أحببته على ذلك فهلمّ.

وتصارعا فصرعه جميل. ثم سأله المعاودة فصرعه ثانية، ثم سأله المعاودة ثالثة فصرعه. وقام نبيه فانصرف إلى الحيّ مغضبا، وأقام جميل مع ابنى عمه على صيدهم. وسأل فتيان العشيرة نبيها عن سبب رجوعه دون أصحابه، فقال: دعانى جميل إلى المصارعة، فكرهت ذلك، ثم ألح على، فصارعته، فصرعته، فوثب علىّ ابنا عمه، فنحيانى عنه وألقياه على صدرى، فرجعت مغضبا. فقالوا له: ما كان ينبغى لك أن تصارع ابن عمك. وإذ قد جرى هذا فلا ينبغى لك أن تفيض فى ذكره ولا تعيده. ولكنه مضى يذيع ذلك فقالت بثينة: كذب والله نبيه لو صرع جميلا ما غم وجهه وتكدر ولكن جميلا صرعه، فجاء مغضبا، وتضاحكت به هى ونساء الحيّ. وعاد جميل وصاحباه فتحدثوا بالخبر على وجهه الصحيح.

زواج بثينة

ألح نبيه منذ صرعه جميل على أبى بثينة أن يزوجها منه، وبذل له مالا عظيما وكان كثير المال. فتزوجها ودخل بها على كره منها. ولما بلغ ذلك جميلا وعرف أنها لم تعد من حظه بكى أحر بكاء، وأنشد:

أعاذلَ قد أكثرتِ جهلا من الجهل ... على غير شىء من ملامى ومن عَذْلى
ولو تركتْ عقلى معى ما طلبتها ... ولكن طِلابيها لما فات من عقلى
فيا ربِّ ما وقَّيت شيئا فوقَّها ... حُتوفَ الرَّدى يا ربِّ واجمع بها شملى
فأنتِ حديث النفس إن كنت خاليا ... وجلُّ حديثى أنت فى الجد والهزلِ
فلا تقتلينى يا بثينَ فلم أصبْ ... من الأمر ما فيه يحلّ لكم قتلى
ويا رب لا تجعلْ بثينة شقوة ... علىّ ولا تجعل بهجرانها قَتْلى

بثينة لا تنساه

ما برحت بثينة بعد زواجها تذكر جميلا وتسأل عن شعره الذى ينظمه فى هواها، وكان لا يزال يلم ببيتها فرأته جارية لها فلم يكلمها ولا أعلمها أنه قصد صاحبته، وجلس غير بعيد مستظلا بشجرة. فبادرت الجارية إلى بثينة فأعلمتها. فجاءت هى وبعض بنات خالتها: أم الحسين وليلى ومعهن عجوز تسمى أم منظور، فلما رأينه سلَّمن عليه وجلس إليهن، فقالت له أم منظور: أين كنت بعدنا؟ لقد طال شوقنا إليك فقال: كنت فى أهلى إذ رأيت التباعد عما أحدث أجمل. فبكت بثينة وقالت: لكنا والله ما تباعدنا منك ولا زادتنا الليالى إلا شوقا إليك وتجديدا لمودتك وتحدثا بقية يومهما، وسألته أن ينشدها بعض ما أحدث من شعره فقال:

ألا هل إلى إلمامةٍ أن أُلِمَّها ... بثينة يوما فى الحياة سبيلُ
فإن هى قالت: لا سبيل فقل لها: ... عناءٌ على العذرىّ منك طويلُ
على حين يسلو الناس عن طلب الصِّبا ... وينسى اتِّباع الوصل منه خليلُ

فبكت وجزعت، ثم قالت له: إنى أعجب مما تتمناه فى قولك،

ألا ليتنى أعمى أصمُّ تقودنى ... بثينة لا يخفى علىَّ كلامها

ويحك! ما حملك على هذه الأمنية، أو ليس فى سعة العافية ما يكفينا. وأمسى المساء فتركها وانصرف.

ليلة مع بثينة

رصد جميل بثينة ذات ليلة، حتى إذا صادف منها خلوة تنكر ودنا منها، وذلك فى ليلة ظلماء ذات غيم ورعد وريح، فحذفها بحصاة فأصابت بعض صواحبها ففزعت وقالت: والله ماحذفنى فى هذا الوقت بحصاة إلا الجن

فقالت لها بثينة وقد فطنت: إن جميلا فعل ذلك، فانصرفى يا أختى إلى خبائك حتى ننام، فانصرفت، وبقيت مع بثينة العجوز أم منظور وابنة خالتها أم الجسير. فقامت معهما إلى جميل، فأدخلنه الخباء، وكان زوجها غائبا، فدخل وهو ينشد:

لها فى سواد القلب بالحب مَيْعةٌ ... هى الموتُ أو كادت على الموت تُشْرِفُ
وما ذكرتْكِ النفسُ يا بَثْنَ مرةً ... من الدهرِ إلا كادتِ النفسُ تَتْلَفُ
وإلا اعترتنى زفرةٌ واستكانةٌ ... وجاد لها سَجْلٌ من الدمع يذرفُ
وما استَطْرفتْ نفسى حديثا لخلَّةٍ ... أُسَرُّ به إلا حديثُكِ-طُرَفُ

وتحدثا طويلا حتى أخذهما النوم.

وجاء غلام زوجها بصبوح من اللبن، فرآها نائمة وبالقرب منها جميل، فمضى لوجهه يخبر أهلها ولقيته أختها ليلى والصبوح معه، وقد عرفت خبر جميل وبثينة، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله وبعثت بجارية لها، وقالت احذرى جميلا وبثينة، فجاءت الجارية فنبهتهما. فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس منتشرين ارتاعت، وقالت: يا جميل نفسك نفسك قد جاء غلام زوجى بصبوح من اللبن فرآنا نائمين. فقام وودعها وهو يبكى قائلا:

ألا أيُّها البيتُ الذى حيلَ دونَهُ ... بنا أنت من بيتٍ وأهلُك من أهلِ
ثلاثة أبياتٍ فبيتٌ أُحِبّه ... وبيتان ليسا من هوايَ ولا شكلى
كلانا بكى أو كاد يبكى صبابةً ... إلى إلْفِه واستعجلتْ عبرةً قبْلى
خليليَّ فيما عِشْتُما هل رأيتُما ... قتيلا بكى من حبّ قاتلهِ قبلى

أهل بثينة يطاردونه

وذكر رجل من بنى عذرة أنه كان جالسا يوما مع جميل وهما يتحدثان وإذا وجهه يكفهر، فأنكره ورأى منه غير ما كان يرى، ووثب جميل نافرا

مشعث الشعر متغير اللون، فأتى بناقة له قوية موثقة الخلق، فشدَّ عليها رحله، ثم أتى بقدح فيه لبن فشربه وجاء الرجل بقدح آخر، ثم قال له: اشدد جملك واتبعنى فإنى ذاهب إلى بعض مذاهبى، ففعل ما طلبه إليه. فسارا حتى انتهيا إلى منازل قوم، لم يجدا بها أحدا من الرجال، إذ كانوا فى نجعة، وقد خلفوا النساء وراءهم، فمال جميل إليهن، فلما رأينه عرفنه، وكانت فيهن صاحبته بثينة. وبينما هو يحدثهن إذا الرجال قد أقبلوا، فقلن له: ويحك: انج بنفسك وبصاحبك، فلم يلتفت إلى ما قلن. وغشيه رجال الحىّ فجعلوا يرمونه ويطردونه. فانصرف بصاحبه ومضى به حتى رجع إلى أهله.

وعد لا يتحقق

وزار جميل بثينة ذات يوم فنزل قريبا من ماء عشيرتها (البئر التى يشربون منها) يترصد جارية لها فلم يكن نزوله بعيدا من ورود جارية حبشية لها، ومعها قربة، وكانت به عارفة وبما بينه وبين بثينة. فسلمت عليه وجلست معه، وجعل يحدثها ويسألها عن أخبار بثينة ويحدثها بخبره بعدها، ويحملها رسائله. ثم أعطاها خاتمه وسألها أن تدفعه إلى بثينة وتأخذ موعدا عليها، فوعدته بتحقيق ذلك. وانصرفت إلى أهلها وقد أبطأت عليهم. فلقيها أبو بثينة وزوجها وأخوها، فسألوها عما أبطأ بها، فالتوت عليهم ولم تخبرهم وتعللت، فضربوها ضربا مبرّحا، فأعلمتهم حالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه.

ومر بهم فى تلك الحال فتيان من بنى عذرة فسمعا القصة كلها وعرفا الموضع الذى فيه جميل، فأحبا أن يثبطا عنه أهل بثينة، فقالا لهم: إنكم إن لقيتم جميلا وليست بثينة معه ثم قتلتموه لزمكم فى ذلك كل مكروه، وأهل جميل شجعان أشداء، لا يتركون ثأرهم، فدعوا الجارية توصل خاتمه إلى بثينة. فإذا زارها صنعتم ما شئتم، قالوا: صدقتما إن هذا هو الرأى. فدفعوا

الخـاتم إلى الجاريـة وأمروها بإيصاله وحذروها أن تخـبر بثينة بأنهم علموا القصـة، ففعلـت، ولم تعلم بثينة بما جرى. ومضـى الفتيان فأنذرا جميلا، فقـال: والله مـا أرهبهم وإن فى كنانتى ثلاثين سـهما، والله لا يخطئ كل واحد منها رجلا منهم، وهذا سيفى والله ما أنا رعش اليد ولا جبان الجنان. فناشـداه الله وقالا: البقية أصلح، فتقيم عندنا فى بيوتنا حتى ينتهى طلبهم لـك، ثم نبعث إليها فتزورك وتنصرف سـليما غير معيـب. فقال: أما الآن فابعثا إليها من ينذرها، فأتياه بجارية لهما وقالا له: قل ما حاجتك؟ فقال: ادخلى إليها وقولى لها: إنى أردت اقتناص ظبى فحذره ذلك جماعة، وقالوا له: إياك، ففاتنى الليلة.

فمضـت الجاريـة فأعلمت بثينة مـا قال لها جميـل، فعرفت قصته، وسألت أهلها فعرفوا الخبر، فلم تخرج لزيارته تلك الليلة ورصدوها فلم تبرح مكانها، ومضوا يقتصون أثره، فلم يجدوه، فعرفوا أنه قد فاتهم. وظل جميل عنـد صاحبيه أياما ينتظر لقاء بثينة، فلم يتحقق له ما شـاء، ولا اسـتطاع صاحباه أن يسعفاه، فتركهما ومضى على وجهه وهو ينشد:

ألا مـن لقلبٍ لا يَمَـلّ فيَذْهَـلُ ... أَفِـقْ فالتعـزّى عن بثينة أجمـلُ
وإنَّ التى أحببتَ قد حِيل دونها ... فكُنْ حازمـا ، والحـازم المتحوِّل
سـلا كلُّ ذى وُدٍّ علمتُ مكانَـه ... وأنتَ بهـا حتى الممـات موكَّلُ
فيا قلبُ دَعْ ذكرى بثينـة إنهـا ... وإن كنت تهواها تضنُّ وتبخـل
ومـا هـو إلا أن أهيمَ بذكرهـا ... ويحظَى بجَدْواها سـواى ويَجْذَلُ
وآخـر عهدى من بثينـة نظـرةٌ ... على موقفٍ كادتْ من البَيْن تقتُل
وإنى لأستبكى إذا ذُكِر الهـوى ... إليكِ وإنى مـن هـواك لأَوْجَـل
إذا ما كررتُ الطَّرْفَ نحوكِ ردّه ... من البعد فيّاضٌ من الدمع يَهْمِلُ

مساعدة ولقاء

شكا زوج بثينة إلى أبيها وأخيها إلمام جميل ببيتها وبها، فوجهوا إلى جميل وأعذروا إليه وشكوه إلى عشيرته وتوعدوه . وأتى جميل أهله فلاموه وعنفوه وقالوا له: إنا نستحلف إليهم ونتبرأ منك ومن جريرتك (جنايتك) ، فأقام مدة لا يلم بها. ثم لقى ابنى عمه: روقا ومسعودا فشكا إليهما ما به ، وأنشدهما قوله:

زورا بثينةَ والحبيب مزورُ ... إن الزيارةَ للحبيب يسيرُ
إنى عشيةَ رحتُ وهْى حزينةٌ ... تشكو إلىّ صبابةً لصبور
وتقول بِتْ عندى فديتُك ليلةً ... أشكو إليك فإن ذاك يسير
غَرَّاءُ مِبْسامٌ كأنَّ حديثها ... دُرٌّ تحدَّر نَظْمُه منثورُ
لا مثلها حُسْنٌ ولا كدلالها ... دَلّ ولا كوقارها توقيرُ
ولئن جَزَيْتِ الودَّ منى مثْلَه ... إنى بذلك يا بُثَيْن جديرُ

فقال له روق: إنك لعاجز ضعيف فى حبك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها، وإنك بين ذل لا أحبه لك أو كمد يؤديك إلى التلف أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعذارهم إليك، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها وتصبر نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت، فبكى وأنشد:

لقد لامنى فيها أخٌ ذو قرابةٍ ... حبيبٌ إليه فى ملامته رُشْدى
وقال أفِقْ حتى متى أنت هائمٌ ... ببثْنَةَ فيها قد تعيد وقد تُبْدى
وإن يكُ رُشْدا حبُّها أو غوايةً ... فقد جئتُه ما كان منى على عَمْدِ
لقد لجَّ ميثاقٌ من اللّه بيننا ... وليس لمن لم يوف لله من عهدِ
أفى الناس أمثالى أحبُّوا فحبُّهم ... كحبِّىَ أم أحببتُ من بينهم وحدى

وهل هكذا يلقى المحبون مثل ما لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى
إذا ما دنتْ زدت اشتياقا وإن نأتْ جزعتُ لنأى الدار منهـا وللبُعْد
وكلّ محبٍّ لـم يَزِدْ فـوقَ جُهْـدِه وقد زدتُها فى الحبّ منّى على الجهْدِ

ثـم التفـت إلى ابن عمه وقال له: يا أخى لو ملكـت اختيارى لكان ما قلت صوابا، ولكنى لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعا، ولقد جئتك لأمر أسألك أن لا تكدِّر ما رجوته عندك فيه بلوم وأن تحمل على نفسك فى مساعدتى. فقال له: فإن كنت لابد مهلكا نفسك فاعمل على زيارتها ليلا فإنهـا تخـرج مع بنات عمها إلى ملعب لهن، فأجئ معك حينئذ سـرا؛ ولى صديق من عشـيرة بثينة نأوى عنده نهارا وأسأله مساعدتك على هذا، فتقيم عنده أياما نهاراً وتجتمع معها بالليل، فشكره.

ومضـى روق إلى الرجـل الذى من رهط بثينة فأخبره الخبر، واسـتعهده كتمانه، وسأله مساعدته فيه، فقال له: لقد جئتنى بإحدى العظائم ويحك! إن فى هذا معاداتى الحىّ جميعا إن فطن أحد به. فقال روق: أنا أتحرز فى أمره من أن يظهر. فوعده بذلك. ومضى روق إلى جميل فأخبره بالقصة، فأتيا الرجل فأقاما عنده، وأرسل إلى بثينة بجارية له بخاتم جميل، فدفعته إليها. فلما رأته عرفته. وتبعتها فجاءته، فتحدثا ليلتهما، وكذلك فى ليلتين ثانية وثالثـة. ثم ودعها وقال لها: عن غير بغض والله ولا ملل كان وداعى إياك. وشكر لمضيفه وانصرف مع ابن عمه.

فى زى راع

جاء جميل إلى بثينة وقد اتخذ ثياب راع من رعاة الحىّ، فلم يعرفه أحد، ووجد عند زوجها ضيفانا له، فانتبذ ناحية، وسألته جارية من أنت؟ فقال: مسكين. وجلس وحده، وطعم الضيفان طعام العشاء وتعشى وحده.

وبينما بثينة جالسة مع جواريها على صلاء النار وقد اضطجع الضيفان، وهم منتحون فى جانب من البيت، فقال جميل:

هل البائسُ المقرور دانٍ فمُصْطَلٍ من النار أو مُعْطًى لحافاً فلابسُ

فقالت بثينة لجاريتها: صوت جميل والله اذهبى فانظرى. فرجعت إليها فقالت: هو والله جميل، قد جاء فى ثياب راع. فشهقت بثينة شهقة سمعها القوم فأقبلوا يهرعون إليها. وقالوا لها ما لك: فطرحت ثوبا من حرير فى النار وقالت: احترق ثوبى. فرجع القوم وأرسلت جاريتها إلى جميل، فتواعدا، وخرجت له، وبث كل منهما صاحبه وجده. وما زالا حتى برق الصباح فودعها وهو يبكى أحرّ بكاء ويقول:

ألا أيُّها الحبُّ المبرِّح هل ترى أخا كَلَفٍ يُغْرِى بحبٍّ كما أُغْرِى
هى البدر حسنا والنساء كواكب وشتَّان ما بين الكواكب والبدرِ

أبو جميل ينصحه

شكا زوج بثينة وأهلها جميلا إلى الوالى فأباح لهم قتله إن وجدوه مع بثينة، فأعذروا إلى أهله مرارا وهو لا يرعوى ولا يزدجر عن الإلمام بدار صاحبته. ولما أعياهم أمره توجهوا إلى أبيه فناشدوه الله والرحم، وسألوه كفّ ابنه عما يتعرض له ويفضحهم به فى بثينة، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع، ثم انصرفوا. فدعا به، فقال له: يا بنى حتى متى أنت فى ضلالك، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل تغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهى مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها، فقولها لك إنما هو تعليل وغرور. إن هذا لذل لك وضيم. وما أعرف أخيب حظا ولا أضيع عمرا منك، فأنشدك الله إلا كففت وتأملت أمرك، وإنك تعلم أن ما قلته حق، ولو كان لك سبيل إليها لبذلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به ممن قُدِّر له، وفى النساء عوض. فقال له جميل: الرأى

مـا رأيت والقول كما قلت. فهل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسـلى نفسـه أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شـخصها عن عينى لفعلت. ولكن لا سـبيل إلى ذلك، وإنما هو بلاء بليت به لقضاء قدِّر لى. وأنا سـأمتنع من طروق هذا الحىّ والإلمـام بهـم ولو مت كمدا، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه. وقام وهو يبكى فبكى أبوه ومن حضر جزعا لما رأوا منه.

جميل يحاول السلوان

لما خاف جميل على نفسه من قوم بثينة ونصحه أبوه ووعده أن يمتنع من الإلمام بحيها فكر ماذا يصنع، وهداه تفكيره أن يرحل إلى الشام ويمدح خلفاء بنى أمية، فيصلوه، ولعله ينسـى صاحبتـه. ومدحهم ونال جوائزهم وظلت ذكرى بثينة لا تفارقه، وطالما أنشد:

منع النومَ شـدةُ الاشـتياقِ ... وادِّكارُ الحبيبِ يومَ الفـراقِ
ولقد قلتُ يوم نادى المنادى ... مستحثًّا برحلـةٍ وانطـلاقِ
ليت لى اليومَ يا بثينةُ منكم ... مجلسـا للوداع قبل الفـراقِ

وعـاد أدراجه إلى قومه. وبلغ بثينة أنه عاد، فراسـلته مع بعض نسـاء الحىّ تذكر شـوقها إليه ووجدهـا به، وواعدته لموضع يلتقيان فيه، فسـار إليها وحدثها طويلا. وعرف أهلها أنها لقيته، فرصدوها وشددوا عليها حتى لا تغافلهم وتلقاه.

حيلة فى اللقاء

انقطع التلاقى بين جميل وبثينة مدة، فركب بعيره، وخرج إلى الصحراء يروح عن نفسه، فلقى رجلا من بنى حنظلة فقال له: ممن أنت يا عبد الله،

فقال: رجل من بنى حنظلة، فقال: انتسب، فانتسب له. فقال له: هل لك فى خير تصطنعه إلىّ، فوالله لو أعطيتنى كل ما ترعى من إبلك ما كنت بأشكر منى لك عليه، فقال الرجل: نعم ومن أنت أولا؟ فقال له: لا تسألنى من أنا، ولا أخبرك، غير أنى رجل بينى وبين هذه العشيرة التى تنزل وراء هذا السفح القريب الذى تراه ما يكون بين بنى العم من بعض الموجدة فإن رأيت أن تأتيهم فإنك تجدهم فى مجلسهم فتنادى وتسألهم ناقة بيضاء غفلا من العلامات، فإن ذكروا لك شيئا فذاك، وإلا فاستأذنهم فى المرور بخيام الحىّ فإن المرأة والصبى قد يريان ما لا يرى الرجال، فتسألهم، ولا تدع أحدا تصيبه عينك ولا خيمة من خيامهم إلا طلبتها فيه.

فأتى الرجل القوم، فإذا هم مجتمعون على بعير ذبحوه، يقتسمونه، فسلم وانتسب لهم ونشدهم (سألهم) ضالته، فلم يذكروا له شيئا ولا أنهم رأوها، فاستأذنهم فى الخيام، وقال إن الصبى والمرأة يريان ما لا يرى الرجال، فأذنوا له، فأتى أقصاها خيمة، واستقراها خباء خباء، ينشد الناقة، فلا يجيبه أحد، حتى إذا انتصف النهار وآذاه حر الشمس وعطش وذهب لينصرف حانت منه التفاتة، فإذا بثلاثة خيام، فقال فى نفسه: ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم، ثم رجع فقال: سوءةً ! وثق بى رجل وزعم أن حاجته تعدل مالى، ثم آتيه فأقول: عجزت عن ثلاثة خيام. فانصرف عامدا إلى أعظمها خيمة، فسلم وسمع من يرد عليه السلام، وذكر ضالته، فخرجت إليه امرأة، وقالت له: يا عبد الله قد أصبت ضالتك، وما أظنك إلا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب، فقال: أجل، فدخلت، فأتته بصحفة مفضضة، فيها تمر، وقدح مفضض فيه لبن، وقالت له: دونك، فتجمع وشرب من اللبن حتى روى، فقال لها: يا أمة الله، والله ما أتيت اليوم أكرم منك ولا أحق بالفضل، فهل ذكرتِ من ضالتى شيئا، فقالت: هل ترى هذه الشجرة فوق

التل؟ فقال: نعم، قالت: فإن الشمس غربت أمس وهى تُطيف حولها، ثم حال الليل بينى وبينها فلم أعرف عنها شيئا.

فقام الرجل وجزاها الخير وقال: والله لقد تغذيت ورويت، فخرج حتى أتى الشجرة، فأطاف بها، فلم ير للناقة من أثر، فأتى صاحبه، فإذا هو متلفع بكسائه فى الإبل يغنى ببعض الشعر. فقال له: السلام عليك، قال: وعليك السلام، ما وراءك؟ فقال الرجل: ما ورائى من شىء، قال لا عليك، فأخبرنى بما فعلت، فقص عليه القصة، حتى انتهى إلى ذكر المرأة وأخبره بالذى صنعت معه، فقال: قد أصبت ما كنت تطلب، فعجب الرجل من قوله، ثم سأله جميل عن صفة الإناءين: الصحفة والقدح، فوصفهما له، فتنفَّس الصعداء وقال: قد أصبت ما كنت تطلب ويحك. ثم ذكر له الرجل الشجرة وأنها رأت الناقة تطيف بها، فقال له: حسبك.

وأمسى مع الرجل حتى أوت إبله إلى مباركها، وما زال معه حتى ظن أنه نام، فقام إلى حقيبة له، فاستخرج منها ثوبين فلبس أحدهما وتردَّى بالآخر، ثم انطلق عامدا نحو الشجرة. وقام الرجل من خلفه، فسار وراءه متخفيا حتى انتهى إلى شجرات قريبة من تلك الشجرة، فاستتر بهن. ونظر فإذا صاحبة رفيقه عند الشجرة تنتظره، وقد جلست وجلس جميل منها غير بعيد، وكان الرجل بحيث يسمعهما. وكان أول ما طرق سمعه سلام جميل عليها وسؤاله عن حالها، سؤالا كريما بعيدا من كل ريبة، وسألته مثل سؤاله. ثم أمرت جارية معها، فقربت إليه طعاما، فلما أكل وفرغ قالت له: أنشدنى ما قلت فى غربتك، فأنشدها:

ألا ليتَ رَيْعَانَ الشباب جديدُ ودهرا تولّى يا بُثَيْنَ يعودُ
فنَغْنَى كما كنا نكونُ وأنتمُ قريبٌ وما قد تَبْذُلين زهيد

ألا ليتَ شعرى هل أبيتنّ ليلةً ... بوادى القُرَى إنىَّ إذن لسعيد
وهل ألْقَيَنْ فَرْدًا بثينة مرةً ... تجود لنا من ودِّها ونجود
فقد تلتقى الأشتات بعد تفرُّقٍ ... وقد تُدْرَكُ الحاجاتُ وهى بعيد
علقْتُ الهوى منها وليداً فلم يَزَلْ ... إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويزيد
وأفنيت عمرى فى انتظارِ نوالها ... وأبليتُ فيها الدهر وهو جديد
إذا قلت ما بى يا بثينة قاتِلى ... من الحب قالت ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلت رُدِّى بعض عقلى أعِشْ به ... مع الناس قالت ذاك منك بعيدُ
فلا أنا مردود بما جئتُ طالباً ... ولا حبُّها فيما يَبيدُ يبيدُ
وقلت لها: بينى وبينك فاعْلمى ... من اللّه ميثاقٌ له وعهود
وقد كان حبِّيكُم طَرِيفا وتالداً ... وما الحبُّ إلا طارفٌ وتَلِيدُ
يموت الهوى منِّى إذا ما لَقِيتها ... ويَحْيَا إذا فارقتها فيعود

فقالت له: أحسنتَ ولا فُضَّ فوك. ولم يزالا يتحدثان ما يقولان هُجْرًا ولا سوءا إلى الصباح، فودع كل منهما صاحبه أحسن وداع ثم انصرفا، فقام الرجل فمضى إلى إبله، واضطجع نائما، فجاء جميل، فقال له: حتى متى تنام، فقام الرجل وتوضأ وصلى وحلب إبله وأعانه جميل، وما لبث أن حدثه حديثه وانتسب له، فعرف أنه جميل وأن المرأة بثينة، وقال له: إنى قلت أبياتا فى منصرفى من عندها، فهل لك أن تذهب إليها وتنشدها؟ وقال الرجل نعم، فأنشده:

ألا ياليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... كليْلَتِنا حتى نرى ساطع الفجرِ
ولو سألتْ منى حياتى بذلتُها ... وجُدْتُ بها لوكان ذلك من أمرى

ثم ودعه وانصرف. فذهب الرجل إلى خباء بثينة وسلم فبرزت له، فأنشدها البيتين فدمعت عيناها، ودعته فأكرمته.

الوداع الأخير

أقام جميل مدة طويلة لا يستطيع الإلمام بدار بثينة ولا لقاءها، وكان قد أضناه الجوى وأسقمه، فعزم على المضى إلى بلد ناء بعيد، لعله يتعزى عنها أو يسلوها. وكان الناس يكثرون من الحديث عن عبد العزيز بن مروان والى مصر وكرمه وكثرة بذله وعطائه للشعراء، فعزم جميل على الرحيل إليه، ولكنه فكر فى بثينة وفى هذا الفراق الطويل، فمضى قاصدا إلى حيها غير آبه بما قد يلقى من مكروه، وكانت جالسة أمام خبائها مع بعض صواحبها، وإذا برجل قد أقبل عليها، فسلم، وردت السلام وتأملته، فإذا هو جميل، فقالت دهشة: أجميل؟ فقال: نعم، فقالت: فيم جئت؟ قال: جئت أحدث عهدا بك وإنى راحل إلى مصر، وتحدثا ساعة، ثم ودعها وهو يبكى منشدا:

أرى كل معشوقَيْن غيرى وغيرها ... يلذَّان فى الدنيا ويغتبطان
أصلِّى فأبكى فى الصلاة لذكرها ... لَ الويْلُ مما يكتب المَلَكانِ
ضَمِنْتُ لها أن لا أهيمَ بغيرها ... وقد وَثِقتْ منى بغير ضمان
ألا يا عبادَ الله قُوموا لتسمعوا ... شكاية معشوقين يشتكيان
يعيشان فى الدنيا غريبَيْنِ أيْنَما ... أقاما وفى الأعوام يلتقيان

طائف

انتجع حىّ بثينة موضعا فى البادية، وبينما هى فى هودج تسير ليلا، إذا بهاتف ينشد قول جميل:

رحل الخليطُ جِمالهم بسوادِ ... وحَدَا على أَثَرِ البخيلة حادى
ما إن شعرتُ ولا علمتُ بَبَيْنهم ... حتى سمعتُ به الغرابَ ينادى

فلم تتمالك أن رمت بنفسها وأهلها ينظرون، وبقيت تطلب المنشد فلا تقف عليه، فنادت: أيها الهاتف بشعر جميل ماوراءك منه؟ فلم يجبها مجيب، فنادت ثلاثا وفي كل ذلك لا يرد عليها أحد شيئا، فقال لها صواحبها: أصابك يا بثينة طائف من الجن، فقالت: كلا لقد سمعت قائلا يقول، وأنشدت البيتين، قلن لها: نحن معك ولم نسمع شيئا. فرجعت وركبت مطيتها وهي حيرى والهة العقل كاسفة البال، ثم سارت القافلة. فلما كان في الليل إذا ذلك الهاتف يهتف بقول جميل:

أبى القلبُ إلا حبّ بَثْنَةَ لم يُرِد ... سِوَاها وحبُّ القلبِ بثنةَ لا يُجْدى
إذا ما دنتْ زدت اشتياقا وإن نأت ... جزعت لنأى الدارِ منها وللبعد

فرمت بنفسها وسعت إلى الصوت، فلما قربت منه انقطع، فقالت: أيها الهاتف ارحم حيرتي وسكن عبرتي وأخبرني عن جميل، فلم يرد عليها شيئا. فرجعت إلى رحلها وركبت، وسارت وهي ذاهبة العقل، وفي كل ذلك لا يخبرها صواحبها أنهن سمعن شيئا. فلما كانت الليلة الثالثة نزل أهلها في موضع وأخذ الحيّ مضاجعهم ونامت كل عين، فإذا الهاتف يهتف بقول جميل:

لقد فرح الواشون أن قَطعَتْ حَبْلى ... بثينةُ أو أبدتْ لنا جانبَ البُخْلِ
يقولون: مهلا يا جميل وإنني ... لأُقسم ما بى عن بثينة من مَهْلِ

فأقبلت نحو الصوت، فلما قربت منه لم تجد أحدا، فعادت وهي تبكي وتقول: تالله إن لجميل لنبأ، فقال لها صواحبها: ما هذا يا بثينة؟ وما أصابك؟ إنها لهواجس مرت ببالك وخيالك فخففي عن نفسك ولا تظني إلا خيرا.

وفاة جميل

لقـى عبد العزيز بن مروان والى مصر جميلا لقاء كريما، ولكن القدر كان له بالمرصاد، فلم يلبث أن مرض مرضا قضى فيه نحبه. ولما ثقل عليه المرض عاده رجل من عشيرته، فلما دخل عليه نظر إليه وقال: يا ابن سعد ما تقول فى رجل لم يشرب خمرا قط ولم يأت محرما قط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسـوله منذ خمسين سـنة؟ فقال: من الرجل؟ إنى أظن والله أنـه ناج لأن الله تعالى يقول: ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تُنْهَوْن عنه نكفِّر عنكم سـيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾، قال جميل: أنا هو هذا الرجل، فقال له صاحبه: أتزعم ذلك وأنت تشبب ببثينة منذ عشرين سنة، فقال: أنا فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فلا نالتنى شفاعة محمد إن كنت وضعت يدى عليها لريبة قط وإن كان أكثر ما كان منى إليها أنى كنت آخذ يدها أضعها على قلبى فأسـتريح إليها. ثم أغمى على جميل، وأفاق، فأقبل على صاحبه، فقال له: هل لك فى أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئا أعهده إليك. فقال ابن سعد: حبا وكرامة، قال: إذا أنا مت فخذ ثوبى هذا فاعزله جانبا، وكل شـىء سواه لك، وارحل إلى رهط بثينة، فإذا صرت بمنازلهم، فاركب ناقتى هذه، ثم البس ثوبى ذاك، واشـققه عليك، وصِحْ بهذه الأبيات:

صرخَ النعيُّ وماكَنَّى، بجميلِ ... وثَوَى بمصـرَ ثَواءَ غير قُفولِ
صرخَ النعيُّ بفارسٍ ذى همـةٍ ... حلو الشـمائل للرجـال قتول
قـومى بثينةُ فانْدُبى بعـويلِ ... وابكى خليلَكِ دون كل خليل

وأغمى على جميل فمات. فواراه صاحبه التراب، ثم ركب ناقته، وسار بها حتى نزل فى رهط بثينة، فشـق ثوبه الذى عينه له، وصاح بالأبيات.

وسمعته بثينة، فصرخت صرخة تنبه عليها الحىّ، وسقطت لوجهها مغشيا عليها، واجتمع عليها الرجال والنساء يسألونها: مالخبر؟ فأنشدتهن أبيات جميل، ورفعت صوتها بالعويل والبكاء، وأقام النساء معها ثلاثة أيام، وهى تبكى جميلا وتندبه، وتحزَّن الرجال وبكوه وقالوا: يرحمه الله فإنه كان عفيفا صدوقا. ولما انتهت الأيام الثلاثة حلفت بثينة أن لا تكتحل بعده ولا تضع مشطا فى رأسها ولا حلية ولا تفرق شعرها ولا تدهنه بطيب ولا تلبس قِناعا مصبوغا ولا ثوبا منقوشا. وبقيت تبكيه وتقول:

وإن سلوًى عن جميلٍ لساعةً ... من الدهر ما حانتْ ولا حان حِينُها
سواءٌ علينا يا جميل بن معمرٍ ... - إذا مُتَّ - بأساءُ الحياة ولينُها

وما زالت تردد هذين البيتين، حتى قضى عليها اليأس والحزن، فلحقت به.

❑❑❑

قَيْس بن ذَرِيح ولُبْنَى

أول الهوى بين قيس ولبنى

كان قيس بن ذريح من قبيلة كنانة، وكانت عشيرته تنزل فى ضواحى المدينة، واشتهر بأنه رضيع الحسين بن على بن أبى طالب، إذ أرضعته أمه فى أثناء رضاعها له. وأول ما كان من حبه لبنى أنه مر يوما فى بعض حاجته بخيام قبيلة كعب بن خزاعة. وكان الرجال غائبين عن الحىّ فوقف على خيمة لبنى بنت الحباب الكعبية، فاستسقى ماء، فسقته، وخرجت إليه به، وكانت فتاة مديدة القامة حلوة المنظر والكلام، فلما رآها وقعت فى نفسه. وشرب الماء، فقالت له: أتنزل عندنا؟ قال: نعم، فنزل بهم، وجاء أبوها، فذبح له شاة وأكرمه.

وانصرف قيس وفى قلبه من لبنى حر لا يطفأ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع وذاع بين الناس ثم أتاها يوما آخر وقد اشتد وجده بها، فسلّم، فظهرت له، وردت سلامه، وتحفَّت به، فشكا إليها ما يجد بها وما يلقى من حبها وشكت إليه مثل ذلك، فأطالت، وعرف كل واحد منهما ما له عند صاحبه.

زواج العاشقين

ذهب قيس إلى أبيه ذريح وأعلمه حاله، وسأله أن يزوجه لبنى، فأبى عليه، وقال: يا بنى، عليك بإحدى بنات عمك، فهن أحق بك. وكان ذريح

كثير المال موسـرا، فأحب ألاَّ يخرج ابنه إلى غريبة. ولما سمع قيس من أبيه ذلك ساءه ماخاطبه به. فأتى أمه فشكا ذلك إليها واستعان بها على أبيه، فلم يجد عندها ما يحب. فأتى رضيعه الحسـين بن على وابن أبى عتيق (حفيد أبى بكر الصديق) وكان صديقه، فشـكا إليهما ما به وما ردّ عليه أبواه. فقال له الحسين: أنا أكفيك، فمشى معه إلى أبى لبنى. فلما بصر به أعظمه ووثب إليه، وقال له: يا ابن رسول الله ما جاء بك؟ هلا بعثت إلىّ فأتيتك، فقال: إن الذى جئت فيه يوجب قصدك، وقد جئتك خاطبا ابنتك لقيس بن ذريح، فقال: يا ابن رسول الله، ماكنا لنعصى لك أمرا وما بنا عن قيس رغبة. ولكنى أحـب أن يخطبها ذريح أبوه علينا وأن يكون ذلك عن أمره، فإنا نخاف إن لم يَسْـع أبوه فى هذا أن يكون عارا وسُبَّة علينا. فأتى الحسين ذريحا وقومه وهـم مجتمعون، فقاموا إليه إعظاما لـه، وقالوا له مثل قول أبى لبنى. فقال الحسـين لذريح: أقسـمت عليك إلا خطبت لبنى لابنك قيس. فقال ذريح: السمع والطاعة لأمرك.

وخـرج ذريح مع الحسـين فـى وجوه من قومه، حتى أتـوا حىَّ لبنى، فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيها، فزوجه إياها، وزفت إليه بعد ذلك. وأقاما معا سعيدين لا ينكر أحد منهما من صاحبه شيئا.

غيرة الأم

كان قيـس أبر النـاس بأمه، فألهته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك، فوجدت أمه فى نفسها وقالت لأبيه: لقد شغلته هذه المرأة عن برِّى. وانتظرت حتى مرض قيس مرضا شديدا، فلما برئ من علته قالت لزوجها ذريح: لقد خشـيت أن يموت قيس ومـا يترك خلفا له، وقد حُرم الولـد من هذه المرأة وأنـت ذو مال فيصير مالك إلى أقربائك، فزوِّجه بغيرها، فلعل الله أن يرزقه

ولدا، وألحت عليه فى ذلك. فأمهل قيسا مدة حتى إذا خلا به يوما قال له: يا قيس إنك اعتللت هذه العلة، فخفت عليك، ولا ولد لك ولا لى سواك، وهذه المرأة ليست بولود، فتزوج إحدى بنات عمك، لعل الله أن يهب لك ولدا تقرُّ به عينك وأعيننا، فقال له قيس: لست متزوجا غيرها أبدا. فقال له أبوه: إن فى مالى سعة، فتزوج معها أخرى، فقال قيس: لا أسوءها والله بشىء أبدا، فقال له أبوه: فإنى أقسم عليك إلا طلقتها، فأبى، وقال: الموت والله أسهل علىّ من ذلك، ولكنى أخيرك خصلةً من ثلاث خصال، قال أبوه: وما هى؟ قال: تتزوج أنت، فلعل الله أن يرزقك ولدا غيرى، قال: ما عندى فضلة لذلك. قال قيس لأبيه: فدعنى أرتحل عنك بلبنى واصنع ما كنت صانعا لو مت فى علتى. قال أبوه: ولا هذه. قال قيس: فأدع لبنى عندك وأرتحل عنك، فلعلى أسلوها، فإنى ما أحب بعد أن تكون نفسى طيبة أنها فى خيالى: فقال أبوه: لا أرضى إلا أن تطلقها، وحلف لا يكنّه (لا يستره) سقف بيت أبدا حتى يطلق لبنى. وكان ذريح يخرج، فيقف فى حر الشمس، ويجئ قيس فيقف إلى جانبه، فيظله بردائه ويصلى هو بحر الشمس، حتى يسقط الظل، فينصرف عنه ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكى وتبكى معه، وتقول له: يا قيس لا تطع أباك، فتهلك وأهلك معك، فيقول: ما كنت لأطيع أحدا فيك أبدا.

طلاق لبنى

مازال أبو قيس وأمه يلحان عليه فى طلاق لبنى، حتى استجاب إليهما على كره منه، ولم يكد يصنع حتى طار عقله ولحقه مس الجنون، وأخذ الشعر ينفجر على لسانه يعبر به عن لواعج قلبه، يتأسف ويبكى أشد بكاء، ويقول:

يقولـون لُبْنَى فتنةٌ، كنتَ قبلهـا بخـيرٍ فـلا تَنْدَمْ عليهـا وطلِّـقِ
وَددْتُ وبيتِ الله أنّـى عَصَـيْتهم وحُمِّلـت فى رضوانِهـا كلَّ مُوبقِ
وكُلِّفتُ خوضَ البحر والبحر زاخرٌ أَبِيتُ على أَثْبَـاجَ مـوجٍ مُغـرِّقِ
كأنّى أرى الناسَ المحبِّين بعدها عُصـارةَ مـاء الحنظـلِ المُتَفلِّـقِ
وتُنْكـرُ عينى بعدهـا كلَّ منظـرٍ ويكـره سـمعى بعدَهـا كلَّ منطقِ

ولما علمت لبنى بخبر طلاقها من قيس أرسـلت إلى أبيها فأعلمته الخبر، فأقبـل بهـودج على ناقه وبإبـل تحمل أثاثها ورأى ذلـك قيس فأقبل على جاريتها، فقال: ويحك ما دهانى فيكم، فقالت له: لا تسـألنى وسل لبنى، فذهب ليلم بخبائها فيسـألها، فمنعه قومها، وأقبلت عليه امرأة من عشيرته فقالت له: ما لك تسـأل كأنك جاهل أو تتجاهل، وهذه لبنى ترتحل الليلة أو غدا، فسقط مغشيا عليه لا يعقل، ثم أفاق وهو ينشد:

وإنـى لمُفْنٍ دمـع عَيْنَىَّ بالبُكا حِذارَ الذى قد كان أو هو كائنُ
وقالـوا غدًا أو بعـد ذاك بليلـة فراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهْـو بائن
وما كنتُ أخشى أن تكون منيَّتى بكفَّيْكِ إلاّ أن ما حـانَ حـائنُ

وسـقط غراب قريبا منه، فجعل ينعق مرارا، فتطيَّر منه أشـد تطير، ولم يلبث أن قال:

لقد نادى الغرابُ ببَيْن لُبْنَى فطار القلبُ من حذر الغرابِ
وقال: غـدا تباعَدُ دارُ لبنى وتنـأى بعـد وُدٍّ واقـترابِ
فقلت: تعستَ ويحكَ من غرابٍ وكان الدهرَ سعيُكَ فى اغترابِ

وأزف وقـت الرحيل، ورآهـا وقومها يدخلونها هودجهـا فجعل يبكى وينشج أحرّ نشيج، ويقول:

ألا يا غرابَ البَيْن ويحك نبِّنى بعلمك من لبنى وأنت خبيرُ
فإن أنت لم تخبر بما قد علمته فلا طرتَ إلا والجناحُ كسيرُ
ودُرْتَ بأعداءٍ حبيبُك فيهمُ كما قد تراني بالحبيب أدورُ

ولما ارتحل قومها اتبعها مليا، ثم وقف لما يعلم من أن أباها سيمنعه من المسير معها، وأخذ ينظر إليهم ويبكى حتى غابوا عن عينه، وهو ينشد:

بانتْ لبينى فأنت اليوم متبول والرأى عندك بعد الحزم مخبولُ
أستودع الله لبنى إذ تفارقنى بالرغم منى وقول الشيخ مفعولُ

وكر راجعا، وفى أثناء رجوعه نظر إلى أثر خف بعيرها فأكب عليه يقبله ورجع يقبل موضع مجلسها وأثر قدمها. فلامه أهله على ذلك وعنفوه على تقبيل التراب، فقال:

وما أحببتُ أرضكمُ ولكن أقبِّل إثْرَ من وطئ الترابا
لقد لاقيت من كلفى بلبنى بلاء ما أُسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لبنى عَييتُ فما أطيق له جوابا

ولما جنَّ عليه الليل وانفرد وأوى إلى مضجعه لم يأخذه القرار وجعل يتململ فيه تململ الملدوغ ثم وثب حتى أتى موضع خبائها، فجعل يتمرغ فيه ويبكى ويقول:

بِتّ والهمُّ يا لُبَيْنَى ضجيعى وجرتْ - مذ نأيتِ عنى - دموعى
وتنفَّستُ إذ ذكرتك حتى زالت اليومَ عن فؤادى ضلوعى
يا لُبَيْنَى فدتْكِ نفسى وأهلى هل لدهرٍ مضى لنا من رجوع

وأصبح فخرج متوجها نحو الطريق الذى سلكته يتنسَّم روائحها، فسنحت له ظبية فقصدها، فهربت منه، فأنشأ يقول:

ألا يا شبه لبنى لا تُراعى ولا تتيمَّمى قُلَل القِلاعِ
وأصبحتُ الغداة ألوم نفسى على شىء وليس بمستطاعِ
وقد عشنا نلذ العيش حينا لو إنَّ الدهر للإنسان راعِ
ولكنَّ الجميع إلى افتراقٍ وأسبابُ الحتوفِ لها دواعِ

وظل يعاتب نفسه فى طاعته أباه فى طلاق لبنى، ويقول: ما كان على لو اعتزلته وأقمت فى حيها أو فى بعض بوادى العرب أو عصيته فلم أطعه، هذه جنايتى على نفسى، وها أنذا ميت فمن يرد روحى إلىَّ. وكلما قرَّع نفسه وأنَّبها بلون من التقريع والتأنيب بكى أحر بكاء وألصق خده بالأرض ووضعه على آثارها، وقال:

وكلّ مصيبات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هَيِّنة الخطْبِ

غربان النوى

ظلت لبنىٰ حزينة على قيس بعد رحيلها، لا يهنأ لها عيش، وكانت ما تزال تسأل عنه من يلم بدارها من عشيرته فيصفون لها تغير حاله وما عليه من الهوى والصبابة بها، فكانت تستنشدهم أشعاره، فينشدونها، وهى تبكى وتنوح على مصيرها ومصيره، وأُنشدت ذات يوم قوله فى غراب البين:

ألا يا غرابَ البَيْنِ قد طِرتَ بالذى أُحاذِر من لُبْنى فهل أنت واقعُ

فأمرت غلاما لها ألاَّ يرى غراب بينٍ إلا يصيده، وهو غراب أسود صغير، فكان ما يزال يأتيها ببعض الغربان فتتناولها وتضربها، وتنشد البيت.

وأتاها غلامها يوما بأربعة غربان، فلما رأتهن بكت وصرخت وكتفتهن وجعلت تضربهن بالسوط، ثم أمسكت بغراب منهن، فنتفت ريشه، وهى تصيح:

لعمـرى لقـد صـاح الغراب ببينهم فأوجع قلبى بالحديث الذى يبدى
فقلت له: أفصحتَ، لاطِرتَ بعدها بريشٍ فهـل للقلب ويحـك من رَدِّ

ثم أخذت الثانى فشدت فى رجليه خيطين وباعدت بينهما، وجعلت تقول له: أتبكى بلا دمع وتفرق بين الألاف بلا حق، فمن أحق بالقتل منك، وأنشدت:

ظعـن الذين فراقهـم أتوقَّـع وجرى ببينهم الغرابُ الأَبْقَعُ
فزجرتُـه أن لا يفـرِّخَ بَيْضَـهُ أبـداً ويصـبحَ واقعـاً يتفجّـع
إن الذين نعبتَ لى بفراقهـم هُم أسهدوا ليلى التمام فأوجعوا

ثم أخذت الثالث فنتفت ريشه، حتى كأن لم يكن عليه ريش قط، ثم ضربته حتى مات، وصاحت تنشد:

ألا يا غرابَ البين لونك شاحب وأنت بلوعـات الفـراق جديرُ
فبيِّن لنا ما قلت إذ أنت واقـعٌ وبَيِّن لنـا ما قلـت حين تطـير
فإن يك حقا ما تقول فأصبحتْ همومـك شـتى والجنـاح كسـير
ولا زلت مكسـورا عديما لناصرٍ كما ليس لى من ظـالمىَ نصـير

وكسرت جناحه، وأمرت بالرابع فأخذت تضربه حتى مات وأنشدت بأعلى صوتها قول قيس:

لقد نادى الغرابُ ببَيْن لُبْنَى فطار القلب من حَذَرِ الغرابِ

فدخل أبوها فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما دعاك إلى ما أرى؟ قالت: دعانى أن ابن عمى وحبيبى قيسـا دعـا عليهن بالوقوع فلم يقعن. فقال إنك وابن عمك تظلمان الغربان، ألم تسمعى قول القائل:

نعبَ الغـرابُ برؤية الأحبابِ فلذاك صرت أحبُّ كلَّ غرابِ

قالت: ليس البيت يا أبى كما أنشدته، وإنما هو

نعَب الغرابُ بفرقةِ الأحبابِ فلذاكَ صِرتُ عدوَّ كلَّ غرابِ

فآليت لا أظفر بغراب إلا قتلته. فأظهر أبوها لها الغضب، وتركها وذهب إلى أمها فشكا لها سوء فعلها وقولها وما تشعر به من حسرة ولوعة.

تأججت نيران الغرام فى نفس قيس بن ذريح وقلبه، وكأنما كان طلاقه لبنى وفراقها له الشرارة التى اندلعت منها هذه النيران، فهى لا تخبو فى فؤاده أبدا، مهما بللتها دموعه، وقد انطلق يصيح:

أحبُّكِ أصنافاً من الحبِّ لم أجدْ لها مَثَلاً فى سائر الناس يُوصَفُ
فمنهنَّ حبٌّ للحبيب ورحمةٌ بمعرفتى منه بما يتكلَّفُ
ومنهن أن لا يَعْرِضَ الدَّهرَ ذكرُها على القلب إلا كادتِ النفس تَتْلَفُ
وحبٌّ بدا بالجسم واللون ظاهرٌ وحبٌّ لدى نفسى من الرُّوحَ ألطفُ

وظلت ذكرياته العذبة معها لا تبرح ذاكرته، فهى لا تختفى من أمام ناظريه، ولا تختفى عيناها الساحرتان حتى فى النوم وإنه لينشد:

وإنى لأَهْوَى النَّومَ فى غير حِينه لعلَّ لقاءً فى المنام يكونُ
تُحدِّثنى الأحلامُ أنىَّ أزَاكمُ فيا ليتَ أحلامَ المنام يقين
شهدتُ بأنى لم أَحُلْ عن مَودَّةٍ وأنَّى بكم لو تَعْلمين ضَنين
وأن فؤادى لا يَلِين إلى هوَى سواكِ وإن قالوا بَلَى سيَلين

وظل دائم التطلع إلى أيامه الماضية معها، وكان يتحسر على ما فرط من طلاقها وفراقها ويقول:

أتبكى على لُبْنى وأنت تركتَها وكنتَ كآتٍ حَتْفه وهْو طائعُ
كأن بلادَ الله ما لم تكن بها وإن كان فيها الناسُ قفر بلاقعُ

ألا إنمـا أبكى لمـا هـو واقـعٌ ... فهل جزعى من وشك ذلك نافعُ
وما كلُّ ما منَّتْك نفسُك خالياً ... تُلاَقِى ولا كلّ الهوى أنت تابعُ
نهـارِى نهـارُ الوالهين صبابةً ... وليلىَ تنبو فيـه عنِّى المضـاجعُ
وقد كنتُ قبل اليومِ خِلْواً وإنما ... تُقَسَّم بين الهـالكين المَصَـارعُ

خروج قيس إلى ديار لبنى

ولما أضنى الحب قيسـا رق له بعض رفاقه القدماء، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديارها لعله يحظى بلقائها، فخرج معهم، وهو ينشد:

لقد عذَّبْتَنى يا حُـبَّ لُبْنَى ... فقَـعْ إما بمـوتٍ أو حيـاةِ
فإن المـوت أَرْوحُ من حيـاةٍ ... تدوم على التباعد والشَّتاتِ

ومازالـوا يجدُّون فى السـير حتى انتهوا إلى ديارهـا، فأقاموا معه حتى لقيها، فلما وقعت عينه عليها خرَّ مغشيا عليه، ولما أفاق أنشأ يقول:

اللّـه يدرى ومـا يدرى بـه أحـدٌ ... مـاذا أُجَمْجِم من ذكـراكِ أحيانـا
لا بارك الله فيمـن كـان يحسَبُكم ... إلاّ على العهـد حتى كان ما كانا
إن تَصْرِمى الحبلَ أو تُمْسِى مُفارِقةً ... فالدهـر يُحْـدث للإنسـان ألوانـا

ثم ودعها ومضى مع رفاقه.

لقاء ثان فى الحج

وأشـار قوم على قيس بالحج لعله يسـلو لبنى، فحـج واتفق أن حجَّت هـى الأخرى فى تلك السـنة، فرآها ومعها امرأة مـن قومها، فدهش وبقى واقفا مكانه ومضت لسبيلها، ثم أرسلت إليه بالمرأة تبلغه السلام وتسأله عن خبره، فوجدته جالسا وحده يبكى وينشد:

ويومَ مِنًى أعرضتِ عنى فلم أقل بحاجة نفسٍ عند لُبْنَى مقالُهـا
وفى اليأس للنفس المريضة راحةٌ إذا النفسُ رامتْ خُطَّة لا تنالها

ودخلت المرأة خباءه وجعلت تحدثه عن لبنى ويحدثها عن نفسه مَلِيًّا، ولم تعلمه أن لبنى أرسلتها إليه، فسألها أن تبلغها عنه السلام، فامتنعت عليه، فأنشأ يقول:

إذا طلعتْ شمسُ النهارِ فسلِّمى فآيةُ تسليمى عليكِ طلوعُها
بعشرِ تحيَّاتٍ إذا الشمسُ أَشْرَقتْ وعشرٍ إذا اصفرَّتْ وحان رجوعُها
ولو أبلغتْها جارةٌ قولَ اسلَمى بكتْ جَزَعاً وارفضَّ منها دموعُها
وبانَ الذى تُخْفِى من الوجد فى الحَشا إذا جاءها عنِّى حديثٌ يَرُوعُها

وقضى الناس حجهم وانصرفوا ولم يأته رسول منها، لأن قومها رأوه وعلموا به، فخشيت أن تراسله، فقال:

تُمنِّينَنِى نَيْلاً وتَلْوِيننى بهِ فنفسىَ شوقاً كلّ يوم تَقَطَّعُ
وقلبكِ قَطُّ ما يَلِين لما يَرى فواكبدى قد طال هذا التضرُّع
أُخُبِّرتِ أنِّى فيك مَيِّتُ حسرتى فما فاض من عينيكِ للوجد مَدْمَع
ولكن لَعَمْرى قد بكيتكِ جاهداً وإن كان دائى كلُّه منك أجمع
وما غَشِيتْ عينيكِ من ذاك عَبْرةٌ وعينى على ما بى بذكْراكِ تدمَع

وبلغتها الأبيات فجزعت جزعا شديدا وبكت بكاء كثيرا. ثم خرجت إليه ليلا على موعد فاعتذرت، وقالت: إنما أبقى عليك وأخشى أن يقتلك قومى، فأنا أتحاماك لذلك، ولولا هذا ما افترقنا، وودعته وانصرفت.

مرض قيس

عاد قيس إلى قومه بعد رؤيته لبنى فى الحج وقد سالت نفسه حسرات، فأنكروه وسألوه عن حاله، فلم يخبرهم ومرض مرضا شديدا أشرف منه على

المـوت، فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلموه وعاتبوه وناشـدوه الله، فقال: ويحكم أترونى أمرضت نفسـى أو وجدت لها سـلوة لقد اخترت الهم والبلاء وهذا ما اختاره لى أبواى وابتليانى به.

ولمـا رأت أمه تماديه فى مرضه وتعلقه بلبنى أرسـلت إليه بفتيات من عشيرته يعبن عنده لبنى ويلمنه على جزعه وبكائه فأتينه واجتمعن حواليه، وجعلن يمازحنه ويعبن لبنى عنده، فلما أطلن فى ذلك أقبل عليهن وقال:

يَقَـرُّ بعينى قربُهـا ويَزِيدُنـى بهـا كَلَفاً مَنْ كان عندى يَعِيبُها
وكم قائل قـد قـال تُبْ فعصَيْتُه وتلك لعَمْـرى توبـةٌ لا أتوبهـا
فيا نفسُ صبراً لستِ واللهِ فاعلمى بأوَّلِ نفسٍ غـاب عنهـا حبيبُها

فانصرفن عنه إلى أمه فأيأسنها من سلوته.

وصنع أبوه صنيع أمه، فسأل بعض فتيات من الحىّ أن يَعُدْنه ويحدثنه لعله يتسـلى عـن لبنى أو يتعلق بإحداهن، ففعلـن ذلك. ودخل إليه طبيب ليداويه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده جعلن يحادثنه وأطلن السـؤال عن سبب علته فقال:

عِيدَ قيسٌ من حبِّ لُبْنى ولُبنى داءُ قيـسٍ والحـبُّ داءٌ شـديدُ
وإذا عـادنى العـوائدُ يومـاً قـالت العـين لا أرَى من أُريدُ
ليت لُبْنَى تَعُـودنى ثم أَقْضِـى إنهـا لا تعـود فيمـن يعـودُ
وَيْـحَ قيسٍ لقـد تضمَّن منهـا داءَ خَبْلٍ فالقلبُ منـه عميدُ

فقال له الطبيب: منذ كم هذه العلة؟ ومنذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت، فقال وهو يبكى متحسرا:

تعلَّق رُوحِى روحَها قبل خَلْقِنا ومن بعدِ ما كنا نِطافاً وفى المهدِ

فـزاد كما زِدنـا فأصبح نامياً ... وليس إذا مُنّا بمُنْصَرِمِ العهـدِ
ولكنه باقٍ على كـلِّ حـادثٍ ... وزائرُنا فى ظُلْمةِ القبرِ واللَّحْـدِ

فقـال له الطبيب: إن مما يسـليك عنها أن تتذكر ما فيها من المسـاوئ والمعايب وما تعافه النفس من بنى آدم، فإن النفس تنفر حينئذ وتسلو ويخف ما بها، فقال يجيبه:

إذا عِبْتُها شبَّهتهـا البدرَ طالعـا ... وحسبُكَ من عيبٍ لها شَبَهُ البدر
لقد فُضِّلتْ لبنى على الناس مثلما ... على ألف شهر فُضِّلتْ ليلةُ القَدْرِ

ودخـل أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبـة فأنّبه ولامه وقال له: يا بنى، الله الله فى نفسك، فإنك ميت إن دمت على هذا، فأنشد:

وفى عُرْوَةَ العُذْرىّ إن متُّ أسـوةٌ ... وعمرِو بن عَجْلانَ الذى قتلتْ هندُ
وبى مثلُ مـا ماتَا بـه غـيرَ أننى ... إلى أجـلٍ لـم يأتِنى وقتُـه بعـدُ
هـل الحبُّ إلا عَبْرةٌ بعـد زفـرةٍ ... وحَرٌّ على الأحشـاء ليس لـه بَرْدُ
وفيضُ دمـوعٍ تَسـتهلُّ إذا بـدا ... لنا عَلَمٌ من أرضكم لم يكن يبدو

زواج قيس بأخرى

ولما طال على قيس مرضه أشـار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله يسلو بها عن لبنى فدعاه إلى ذلك فأباه وقال:

لقد خِفْتُ أن لا تَقْنَع النفسُ بعدها ... بشىءٍ من الدنيـا وإن كـان مَقْنَعـا
وأزجُرُ عنها النفسَ إذ حيل دونها ... وتأبَـى إليهـا النفسُ إلا تَطلُّعـا

فأعلمهـم أبوه بما رد عليه، قالوا: فأمره بالمسـير فـى أحياء العرب والنزول عليهم، فلعل عينه أن تقع على فتاه تعجبه، فأقسم عليه أبوه أن يفعل، فسار

حتى نزل بحى من قبيلة فزارة، فرأى جارية حسناء قد حسرت قناع حرير عن وجهها وهى كالبدر ليلة تمامه، فقال لها: ما اسمك يا جارية، قالت: لبنى، فسقط على وجهه مغشيًا عليه، فنضحت على وجهه ماء وارتاعت لما عراه، ثم قالت: إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لمجنون! فأفاق، فسألته من هو فعرفها بنفسه، فقالت: لقد علمت أنك قيس، ولكنى نشدتك بالله وبحق لبنى إلا أصبت من طعامنا، وقدمت إليه طعاما، فأصاب منه قليلا. وركب فأتى على أثره أخ لها كان غائبا، فرأى مناخ ناقته، فسألهم عنه، فأخبروه، فركب ناقته حتى رده إلى منزله، وحلف عليه ليقيمن عنده شهرا، فقال له: لقد شققت على ولكنى سأتبع هواك والفتى الفزارى يزداد عجبا بحديثه وعقله وشعره، فعرض عليه الصِّهْر، فقال له: يا هذا إن فيك لرغبة، وإنى لمعجب بأختك، ولكنى فى شغل لا يُنْتَفع بى معه.

ولم يزل الفتى الفزارى يعاوده فى طلب مصاهرته والحى يلومونه ويقولون له: قد خشينا أن يصيرعلينا فعلك سُبَّةً، فقال: دعونى، ففى مثل هذا الفتى يرغب الكرام، فلم يزل به حتى أجابه وعقد الصهر بينه وبين الفتى على أخته المسماة لبنى، وقال له الفتى: أنا أسوق عنها صداقها (المهر) فقال قيس بن ذريح: أنا والله يا أخى أكثر قومى مالا، فما حاجتك إلى تكلف هذا، أنا سائر إلى قومى وسائق إليها المهر.

وتوجه قيس إلى أهله وأعلم أباه بالذىكان منه، فسرَّه، وساق له مهرا كبيرا. فرجع إلى الفزاريين وأقام عندهم حتى أدخلت عليه زوجته. فلم يروه هشَّ إليها ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ولا نظر إليها. وأقام على ذلك أياما كثيرة. ثم أعلمهم أنه يريد الرحيل إلى قومه والبقاء عندهم أياما، فأذنوا له فى ذلك.

ومضى قيس إلى المدينة وكان له صديق بها من الأنصار، فأتاه، فأعلمه الأنصارى أن خبر تزويجه بلغ لبنى فغمَّها وقالت: إنه لغدَّار، ولقد كنت أمتنع من إجابة قومى إلى تزويجى فأنا الآن أجيبهم ما دام قد نكث الوعد ونقض العهد.

زواج لبنى

كان أبو لبنى شكا قيسا إلى معاوية، وقال له إنه يتعرض لابنته بعد طلاقها، فكتب معاوية إلى والى المدينة – كما يقال – أن يهدر دمه إن تعرض لها أو ألم بها وأن يشتدَّ فى ذلك، وأمر أباها أن يزوجها رجلا سماه له من أهل المدينة، فوجهت لبنى رسولا إلى قيس تعلمه ما جرى وتحذره، فقال:

فإن يجبُوها أو يَحُلْ دون وصلها ... مقالةُ واشٍ أو وعيدُ أمير
فلن يمنعوا عينىَّ من دائم البُكا ... ولن يُذْهبوا ما قد أجَنَّ ضميرى
إلى الله أشكو ما أُلاقِى من الهوى ... ومن حُرَقٍ تعتادنى وزفير
ومن ألمٍ للحبِّ فى باطن الحشا ... وليلٍ طويلِ الحزن غيرِ قصير

وعرض أبو لبنى عليها الزواج بالرجل الذى سماه معاوية، فلم تمتنع، لما علمت من زواج قيس، فزوجها أبوها منه، وزفت عليه وكان نساء الحى يتغنين ليلة زفافها:

لُبَيْنَى زوجُها أصبحَ لا حُرَّ يوازيه
له فضلٌ على الناس ... بما باتت تُناجيه
وقيسٌ ميِّتٌ حىٌّ ... صريعٌ فى بَواكيه
فلا يُبْعِدُه اللّه ... وبُعْدا لنَواعيه

وسمع بذلك كله قيس فجزع جزعا شديدا، وركب من فوره حتى أتى ديار قومها، فناداه النساء: ما تصنع الآن ها هنا، وقد رحلت لبنى مع زوجها، وأصبح بينكما حجاب صفيق، فبكى وأنشد:

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها ... حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
فإنَّ نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا ... ونُبصر قَرْنَ الشمسِ حين تزولُ
وأرواحُنا بالليل فى الحىِّ تلتقى ... ونعلم أنّا بالنهار نَقيل
وتجمعُنا الأرضُ القَرارُ وفوقنا ... سماءٌ نرى فيها النجوم تجول

وجعل الفتيان يعارضونه بأن لبنى تزوجت وانتقلت مع زوجها وهو لا يجيبهم حتى أتى موضع خبائها، فنزل عن راحلته، وجعل يتمرغ فيه ويضع خده على ترابه ويبكى أحرَّ بكاء، ثم قال:

إلى الله أشكو فَقْدَ لُبْنى كما شكا ... إلى اللّه فَقْدَ الوالدينِ يتيمُ
يتيمٌ جفاه الأقربون فجسمُه ... نَحيلٌ وعهدُ الوالدين قديم
تهيَّضَنِى من حبِّ لبنى علائقٌ ... وأصنافُ حُبٍّ هَوْلُهن عظيم
ومن يتعلَّق حبَّ لبنى فؤادُه ... يَمُتْ أو يَعِشْ ما عاش وهو كَلِيمُ

رسول من لبنى

ولما سمعت لبنى بما حدث من قيس بن ذريح فى ديار قومها بعد زواجها أرسلت إليه رسولا وقالت له: استنشده شعره، فإن سألك عن نسبك فانتسب له فى بنى خزاعة، فإذا أنشدك شعرا فىَّ، فقل له: لم تزوجت بعدها حتى أجابت إلى أن تتزوج بعدك؟ واحفظ ما يقوله لك حتى ترده علىّ. فأتاه الرسول فسلَّم وانتسب خزاعيا وذكر أنه من أهل الشام واستنشده، فأنشده قوله:

تكـاد بلادُ اللّـــه يا أُمَّ مَعْمَـــرٍ ... بمـا رَحُبَتْ يومـاً علىّ تَضِـيقُ
تكـذِّبنى بالـودّ لُبْنَـى وليتَهـــا ... تُكلَّـــف مـــنِّى مثلَـــه فتـذوقُ
وإنِّى وإن حاولت صَرْمى وهِجرتى ... عليكِ من أحـداثِ الزَّدَى لشفيق
ولـــم أرَ أيامـاً كأيّامنـــا التـى ... مَـــرَرْنَ علينـــا والزمـــان أنيـق
وحـدَّثْتَنى يا قلـبُ أنكَ صـــابرٌ ... على البين من لُبْنَى فسوف تذوق
فَمُتْ كمـداً أو عِشْ سـقيماً فإنمـا ... تكلَّفنـــى مـــا لا أراكَ تطِـيق
وإن تـك لـــا تَسْلُ عنهـا فإنَّنـى ... بهـــا مُغْرَمٌ صَـبُّ الفؤاد مَشُـوق
سعَى الدهرُ والواشون بينى وبينها ... فقُطِّـع حبلُ الوصـــل وهْـو وَثيق

فقال له الرجل: فلم تزوجت بعدها؟ فأخبره الخبر وحلف له أن عينه ما اكتحلت بالمرأة التى تزوجها وأنه لو رآها فى نسوة ما عرفها وأنه ما مدَّ يدا إليهـا ولا كلَّمهـا. فقال له الرجل: فإنى جار لها، وإنها من الوجد بك على حال قد تمنى زوجها معها أن تكون بقربها لتصلح حالها بك، فحمِّلنى إليها ما شئت أؤديه إليها، فقال قيس له: تعود إلىّ إذا أردت الرحيل، فعاد إليه لما عزم على الرحيل، فقال: تقول لها:

ألا حَىِّ لُبْنَى اليومَ إن كنتَ غاديا ... وألمِـمْ بهـا من قبلِ ألا تَلاقيـا
وإن أَحْىَ أو أهلك فلستُ بزائلٍ ... لكم حافظاً ما بَلَّ ريقٌ لسـانيا
أصونُكِ عن بعض الأمـور مِضَنَّةً ... وأخشَى عليكِ الكاشحين الأعاديا
تَسَاقطُ نفسى حِين ألقـاكِ أنفُسـاً ... يَـرِدْنَ فمـا يَصْـدُرْن إلا صَـواديا
وبين الحشـا والنَّحْـر منِّى حرارةٌ ... ولوعَةُ وجـدٍ تترك القلب سـاهيا
جَزِعتُ عليهـا لو أرى لىَ مجزعاً ... وأفنيتُ دمـعَ العين لو كان فانيا
تمـرُّ الليـالى والشـهور ولا أرَى ... وَلُوعِـى بهـــا يزدادُ إلاّ تماديـا
ألا إنهـا صَدَّتْ وحُمِّلْتُ من هَوًى ... لها مـا يَؤود الشامخاتِ الرواسـيا

لقاء على غير وعد

أخـذ قيس بعض إبل له، وتوجه بها إلى المدينة ليبيعها، ويقضى بثمنها بعض حوائجه، وقدم المدينة، وبينما هو يعرض إبله إذ ساومه زوج لبنى فى ناقة من نوقه وهما لا يتعارفان، فباعه إياها، فقال له إذا كان غد فأتنى فى دارى، فاقبض الثمن، ووصف له داره. ومضى زوج لبنى إليها فقال لها: إنى ابتعـت ناقة من رجل من أهل البادية وهو يأتينا غدا ليقبض ثمنها، فأعدِّى له طعاما، ففعلت.

فلما كان من الغد جاء قيس فصوَّت بالخادم: قولى لسيدك: صاحب الناقة بالباب. فعرفت لبنى صوته، فلم تقل شيئا، فقال زوجها للخادم: قولى له: ادخـل، فدخـل، فجلس. فقالت لبنى للخادم: قولى لـه يا فتى ما لى أراك أشعث أغبر؟ فقالت له ذلك، فتنفس، ثم قال لها: هكذا تكون حال من فارق الأحبـة واختار الموت على الحيـاة وبكى. فقالت لها لبنى: قولى له: حَدِّثْنا حديثك. فلما ابتدأ يحدث به كشـفت لبنى الحجاب، وقالت له: حسـبك قد عرفنا حديثك.

وبهت قيس سـاعة لا يتكلم، ثم انفجر باكيا ونهض فخرج، فناداه زوج لبنـى، ويحك ما قصتك؟ ارجع اقبض ثمن ناقتك، وإن شـئت زدناك. فلم يـرد عليه، وخرج فركب بعيره ومضى. وقالـت لبنى لزوجها: ويحك هذا قيـس بن ذريح، فقال لها ما عرفته. وجعل قيس يبكى فى طريقه، ويندب نفسه. وينشد:

أتبكى عـلى لُبْنَى وأنت تركتهـا ... وكنتَ عليها بالمَـلا أنت أقـدرُ
فـإن تكن الدنيـا بلُبْنَى تقلَّبت ... عـلىَّ فللدنيـا بطـونٌ وأظهـرُ
لقد كان فيهـا للأمانة موضـعٌ ... وللـروح مُرتـادٌ وللعـين مَنْظَـر

وللحـائم العطشـانِ رِيٌّ بريقِهـا وللمَـرحِ المختالِ خمـرٌ ومُسْـكر
كـأنىَ فى أرجوحـةٍ بين أَحْبُلٍ إذا ذُكْرَةٌ منها على القلب تَخْطُرُ

زوج لبنى يؤنبها

اشـتهر أمـر قيس فـى المدينة وغَنَّى فى شـعره المغنون مـن أمثال معبد ولم يبـق شـريف ولا وضيع إلا سمع بشـعره فأطربه وحـزن لقيس مما به. وجـاء لبنى زوجها فأنَّبها علـى ذلك وعاتبها، وقال: قد فضحتنى بذكرك، فغضبـت، وقالـت: يا هذا إنى والله ما تزوجتك رغبـة فيك ولا فيما عندك ولا دلَّـس أمرى عليك أحد، ولقد علمت أنـى كنت تزوجته قبلك وأنه أكره علـى طلاقى. والله ما قبلـت التزويج إلا بعد أن أهدر السـلطان دمه إن ألمَّ بحينا، فخشـيت أن يحمله ما يجد من حبـه على المخاطرة، فيقتله أهلى، فتزوجتك. وأمرك الآن إليك، ففارقنى إن شـئت. فأمسـك عن جوابها ولام نفسـه، وجعل يأتيها بجوارى المدينة يغنينها بشـعر قيس كيما يستصلحها بذلك، فلا تزداد إلا تماديا وبعدا، ولا تزال تبكى كلما سمعت شيئا من شعره أحرَّ بكاء وأشجاه.

قيس يعود إلى المدينة

لـا عاد قيس إلى قومه بعد مـا كان من لقائه للبنى، وتركه لثمن ناقته دون أن يقبضـه اشـتد به الحنين إليهـا، وعاوده المـرض الذى كان ألم بـه، وأصبح لا يفيق من غشـيانه وخفقانه، فكانـت فتيات الحى يعدنه ويعذلنه. فيقول:

إذا أمرتْنى العـاذلاتُ بهجرها أبتْ كَـبِدٌ عما يَقُلْـنَ صديعُ
وكيف أُطِيع العاذلاتِ وذكْرها يؤرِّقنـى والعـاذلاتُ هجـوعُ

ولما طالت علته قال له أبوه: إنى لأعلم أن شفاءك فى القرب من لبنى فارحل إلى المدينة، فرحل إليها، وكان يعرف فيها جارية من الموالى تزوجت بسيد من سادة قريش، وكانت من أظرف النساء وأكرمهن، وكانت تسمى بركة، فأتى دار الضيافة التى لزوجها، فوثب غلمانها إلى رحل قيس ليحطوه، فقال: لا تفعلوا فلست نازلا إلا أن ألقى السيدة بركة، فإنى قصدتها فى حاجة، فإن وجدت لها عندها موضعا نزلت وإلا رحلت، فأخبروها، فخرجت إليه ورحبت به وقالت: حاجتك مقضيه كائنة ما كانت، فانزل، فنزل ودنا منها فقال: أنا قيس بن ذريح، قالت: حياك الله، إن ذكرك لجديد عندنا فى كل وقت، اذكر حاجتك، قال: حاجتى أن أرى لبنى نظرة واحدة، قالت: ذلك لك علىّ. فنزل بهم وأقام عندها وأخفت أمره وزارت لبنى مرارا وتلطفت لها بالهدايا، ثم قالت لزوجها: أخبرنى عنك هل أنت خير من زوجى؟ فقال: لا، قالت فلبنى خير منى؟ قال: لا، قالت: فما بالى أزورها ولا تزورنى، قال: ذلك إليها، فسألتها الزيارة وأعلمتها أن قيسا فى ضيافتها وأن كل مناه أن يراها نظرة واحدة، فأسرعت إلى ذلك وأتتها. فلما رآها ورأته بكيا حتى كادا يتلفان. ثم جعلت تسأله عن خبره وعلته فيخبرها، ويسألها فتخبره ثم قالت له: أنشدنى ما قلت فى علتك الأخيرة، فأنشدها قوله:

أعالجُ من نفسى بقايا حُشاشةٍ ... على رَمقٍ والعائدات تعودُ
فإن ذُكرتْ لبنى هَششْتُ لذكرها ... كما هشَّ للثَّدْيِ الدَّرور وليدُ
أجيبُ بلُبْنى من دعانى تجَلُّداً ... وبى زَفَراتٌ تنجَلى وتعود
تُعيد إلى روحى الحياة وإننى ... بنفسىَ لو عاينتِنى لأجود
ألا ليت أياماً مضيْن تعود ... فإنْ عُدْنَ يوماً إننى لسعيدُ
كأنِّىَ من لُبْنَى سليمٌ مُسَهَّدُ ... يَظَلُّ على أيدى الرجال يَميدُ

فلا اليأس يُسْلينى ولا القربُ نافعى ... ولبنـى مَـنُوعٌ ما تكـاد تجـود
رمَتْنى لُبَيْنَى فى الفـؤاد بسهمهـا ... وسـهمُ لبينـى للفـؤاد صَـيُود
سلاَ كُلُّ ذى شَـجْوٍ علمتُ مكانـه ... وقلبـى للبنـى مـا حَـييتُ وَدود
وقائلةٍ قـد مـات أو هـو ميِّتٌ ... ولِلنفـس منِّـى أن تَفيض رصـيدُ

وعاتبتـه على تزوجه، فحلف أنه لم ينظر إلى من تزوجها ملء عينيه ولا دنا منها فصدقته. ولم يزل يومه معها يحدثها، ويشـكو إليها أعفَّ شـكوى وأكرم حديث حتى أمسى. فانصرفت ووعدته الرجوع إليه من غد فلم ترجع. وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولا. فكتب الأبيات التالية فى رقعة، وأرسل بها إليها:

بنفسىَ مَنْ قلبى لـه الدَّهـرَ ذاكرٌ ... ومَنْ هو عنِّى مُعرضُ القلبِ صابرُ
ومَـنْ حُبُّـه يزداد عندىَ جِـدَّةً ... وحبِّى لديـه مُخْلقُ العهـدِ دائرُ

وبلـغ أهل زوجته الثانية خبره وإلمامه بلبنى، فكاتبوه فى ذلك وعاتبوه. فقال للرسول: قل لأخيها: ماغررته من نفسى، ولقد أعلمته أنى مشغول عن كل أحد، وقد جعلت أمر أخته إليه، فليمض فيه من حكمه ما يرى. فتكرَّم الفتى عن أن يفرق بينهما، ولم تلبث أن ماتت.

لبنى تعود إلى قيس

اجتمع الحسـين بن على بن أبى طالب وأخوه الحسـن وابن أبى عتيق وجماعـة من قريش وتواعدوا على يوم يذهبون فيه إلى زوج لبنى، لعله يردها على قيس. فلما رآهم أعظم مصيرهم إليه وأكبره، فقالوا: لقد جئناك بأجمعنا فـى حاجـة، فقال هى مقضيـة كائنة ما كانـت من ملك أو مـال أو أهل. فقالوا: تهب لنا زوجتك لبنى وتطلقها. قال: فإنى أشهدكم أنها طالق ثلاثا،

فعوضوه منها مالا كثيرا. ثم سأل القوم أباها فردها على قيس. ومازالت عنده حتى ماتت، وتبعها يوم موتها يندبها ويبكيها ويقول:

ماتت لُبَيْنى فموتُها موتى هل تنفعنْ حسرتى على الفَوْتِ
وسوف أبكى بكاءَ مكتئبٍ قضى حياةً وجداً على مَيْتِ

ثم أكبَّ على القبر يبكى حتى أغمى عليه، فرفعه أهله إلى منزله وهو لا يعقل، فلم يزل عليلا لا يفيق ولا يجيب مكلما ثلاثة أيام حتى مات، فدفن بجوارها.

❑❑❑

عُرْوَة بن حِزام وعَفْراء

بدء الحب

كان عروة بن حزام من بنى عذرة، مات أبوه وعمره أربع سنوات، فكفله عمه عقال بن مهاصر، فنشأ فى حجره مع ابنته عفراء يلعبان ويكونان معا، حتى ألف كل منهما صاحبه إلفا شديدا، وكان عقال يقول لعروة لما يرى من إلفه لابنته: أبشر، فإن عفراء زوجتك إن شاء الله. فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ولحق عروة بالرجال فأتى عمة لها يقال لها هند، وقال لها فى بعض ما قال: يا عمة إنى لمكلمك وإنى لمستحَ منك، ولكنى لم أفعل هذا حتى ضقت ذرعا بما أنا فيه، فاذهبى إلى عمى عقال واخطبى لى عفراء منه. فذهبت العمة إلى أخيها، فقالت له: يا أخى قد أتيتك فى حاجة أحب أن تحسن فيها الرد، فإن الله يأجرك لصلة رحمك بى على ما أسألك، فقال لها: قولى فلن تسألى حاجة إلا وفيتها لك. فقالت: تزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء، فقال: ما بى عنه مذهب، ولا هو شخص يرغب عنه، ولا بى عنه رغبة، ولكنه ليس بذى مال، وليس هناك وجه للسرعة، فلنترك الأمر حتى يصيب بعض المال.

وكانت أم عفراء سيئة الرأى فى عروة، وكانت تريد لابنتها رجلا موسرا ذا مال، وكان يطمعها فى أمنيتها أن ابنتها على حظ وافر من الحسن والجمال. وبلغ عروة أشده، وعرف أن شابا موسرا من ذوى قرباه يريد أن يخطبها لنفسه، فأتى عمه، وقال له: يا عم قد عرفت حقى وقرابتى وأنى ولدك وربيت فى

حجرك وقد بلغنى أن شخصا جاءك يخطب عفراء، فإن أسعفته برغبته قتلتنى، فأنشدك الله ورحمى وحقى، فرقَّ له. وقال له: يا بنى أنت معدم وحالنا قريبة من حالك، ولست مخرجها إلى سواك، إلا أن أمها تأبى أن تزوجها إلا بمهر غال فاسْع فى الأرض واسترزق الله تعالى، لعلك تصيب ما تحقق به أمنيتك. فجاء إلى أمها وتلطف لها فأبت أن تجيبه إلا بما تريده من المهر الغالى على أن يسوق إليها هى شطرا كبيرا منه، فوعدها ذلك، وانصرف.

السفر إلى إيران

عرف عروة أنه لا تنفعه قرابة عند عمه وزوجته، وأنه لا سبيل له إلى عفراء إلا أن يحصل على مال وفير، ففكر فى قصد ابن عم له ثرى كان مقيما فى بلدة الرى بإيران، وعرض فكرته على عمه عقال وزوجته، فوافقاه على عزمه، ووعداه ألاَّ يزوجا عفراء غيره حتى يعود. وفى ليلة رحيله صار إلى ابنة عمه: فجلس عندها ومعها فتيات من الحى، وظلوا يتحدثون، حتى جاء الصباح، فودعها وودع صواحبها، وودع الحى جميعه.

وكان له رفيقان يألفهما، فصحباه فى رحلته الطويلة، وشد كل منهم على راحلته، وكان فى طول سفره ساهيا يكلمانه، فلا يفهم، حتى يرد عليه القول مرارا، إذ كان فكره دائما فى عفراء، وكان كثيرا ما ينشد:

تحمَّلتُ من عفراء ما ليس لى بهِ ... ولا للجبال الراسيات يدانِ
فيا رب أنت المستعانُ على الذى ... تحمَّلت من عفراء منذ زمان
كأن قَطاةً عُلِّقتْ بجناحها ... على كبدى من شِدَّة الخفقان

وكانا يعزِّيانه ويقولان له إن أمنيتك منها ستتحقق، فلا يكف عن ذكرها وترداد اسمها، وما أصابه من حبها، وبراه من عشقها، ويقول:

متى تكشفا عنى القميصَ تبيَّنا ... بىَ الضرُّ من عفراء يا فتيان
إذاً تريا لحماً قليلاً وأعظما ... بَلين وقلباً دائمَ الخفقان
وقد تركتْنى ما أَعِى لمحدِّثٍ ... حديثاً وإن ناجيتُه ونجانى
على كبدى من حبِّ عفراء قَرْحَة ... وعيناىَ من وجدى بها غَرِقانِ

ومازال فى هيامه وذكره لصاحبته حتى قدم على ابن عمه، فلقيه وعرَّفه حاله وما قدم له. فوصله وكساه وأعطاه مائة من الإبل، فانصرف بها إلى أهله وقومه.

نقض العهد

تصادف أن رجلا من أهل الشام من بنى أمية نزل فى حى عفراء فنحر بعيرا للناس ووهب وأطعم، وكان ظاهر الثراء، وبينما هو فى بعض مجالسه، إذ رأى عفراء حاسرة عن وجهها ومعصميها تحمل إناء سمن وعليها إزار حرير أخضر، فلما رآها وقعت من قلبه بمكانة عظيمة، فسأل عنها، فعرف أنها ابنة عقال، فخطبها منه، فاعتذر إليه، وقال: لقد سبقك إليها ابن أخ لى يعدلها عندى، وما لغيره إليها سبيل، فقال له: إنى أرغبك فى المهر، فقال عقال: لا حاجة لى بذلك. فعدل الأموى إلى أمها فوجد عندها قبولا، لماله وبذله وكرمه، فوعدته أن تكون من نصيبه، وجاءت إلى زوجها فتلطَّفت له، ثم قالت فى أثناء حديثها معه: أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى عليه، وقد جاءها الغنى والثراء يطرقان عليها بابها، ووالله ما ندرى أعروة حى أم ميت، وهل ينقلب إلينا بمال أو لا، فتكون قد حرمت ابنتك خيرا حاضرا ورزقا سنيا. ولم تزل به حتى قال لها: إن عاد الأموى لى خاطبا أجبته، فوجهت إلى الرجل من ساعتها أن عُدْ إلى عقال خاطبا. فلما كان من غد نحر (ذبح) عدة من الإبل وأطعم الناس وفرق عليهم الأموال، وكان قد دعا الحىَ

جميعه وفيهم عقال، فلما أكلوا أعاد القول فى الخطبة. فأجابه عقال وساق الرجل مهرا كبيرا قرَّت له عين الأم، أما عفراء فكانت تنشد:

يا عُرْوَ إن الحىّ قد نَقَضوا عهدَ الإلهِ وحاولوا الغَدْرا

ولما كان الليل دخل بها زوجها، وأقام فى بنى عذرة ثلاثة أيام. ثم ارتحل إلى الشام مع صاحبته.

عودة عروة

فكر عقال كيف يلقى عروة، وهداه تفكيره إلى أن يحتال عليه، فعمد إلى قبر عتيق، فجدده وسواه، وسأل الحىّ كتمان أمرها. وقدم عروة بعد أيام. فنعاها أبوها إليه، وذهب به إلى ذلك القبر، فمكث يختلف إليه وهو يئن ويتفجع، وكان يأتى دارها فيلصق صدره بها، وينتحب أحرَّ انتحاب، فعذله بعض الناس وقالوا له إنك تشرف على التلف، فأنشد:

بىَ اليأسُ والداء الهيام سُقيته فإياك عنى لا يكن بك ما بيا

ورقت لحاله بعض فتيات الحىّ، فأخبرنه بحقيقة ما كان من عمه وأنه غدر بوعده ولم يوف بعهده، ولما صح عنده ما أنبأته به الفتيات أنشأ يقول:

فيا عمّ يا ذا الغدر لا زلتَ مبتلى حليفا لهمٍّ لازم وهوان
غدرتَ وكان الغدر منك سجية فألزمت قلبى دائمَ الخَفقانِ
وأورثتنى غمًّا وكربا وحسرةً وأورثت عينى دائم الهملانِ
فلا زلت ذا شوقٍ إلى من هويته وقلبك مقسوما بكل مكانِ

إلى عفراء بالشام

ولم يلبث عروة أن عزم على الرحلة إلى الشام، لعله يرى عفراء ويشفى غليله بنظرة منها، فركب بعض إبله وأخذ معه زادا ونفقة واتجه إلى الشام

فقدمها، وسأل عن الرجل فأخبره الناس به ودلوه عليه، فقصده، فأكرمه دون أن يعرفه وأحسن ضيافته، ومكث عنده أياما حتى أنس به. ثم عزم على أن يكشف عن نفسه لصاحبته. فقال لجارية لها كانت تقدم إليه اللبن حين يصبح: هل لك فى يد توليينيها؟ قالت: نعم، قال: تدفعين خاتمى هذا إلى مولاتك. فقالت: سوءة لك. أما تستحى من هذا القول؟! فأمسك عنها، ثم أعاد عليها، وقال لها: ويحك هى والله بنت عمى وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من النفس، فاطرحى هذا الخاتم فى قدحها، فإن أنكرت عليك، قولى لها: اصطبح ضيف عندنا قبلك، ولعله سقط منه. فرقت له الجارية وفعلت ما أمرها به. فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم فى القدح، فعرفته، فشهقت، ثم قالت لجاريتها: اصدقينى عن الخبر فصدقتها. فلما جاء زوجها قالت له: أتدرى من ضيفك هذا؟ فقال: إنى لا أعرفه، فقالت: إنه عروة بن حزام ابن عمى وقد كتمك نفسه حياء منه. فبعث إليه فدعاه وعاتبه على كتمانه نفسه إياه، وقال له: بالرحب والسعة، نشدتك الله لا تترك هذا المكان أبدا. وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان. فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق، وطالت الشكوى وهو يبكى أحر بكاء. ثم ثاب إلى رشده، فقال لها: هذا آخر لقائنا، فقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن إلىّ وأنا خجلان منه، ووالله لا أقيم بعد علمه مكانى، وإنى عالم أنى راحل إلى منيتى، فبكت وبكى وانصرف.

فلما جاء زوجها وعرف أن عروة راحل قال لها: يا عفراء امنعى ابن عمك من الرحيل، فقالت: هو والله لا يمتنع، إنه أكرم وأشد حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما. فدعاه وقال له: يا أخى اتق الله فى نفسك فقد عرفت خبرك، وإنك إن رحلت تلفت، ووالله لا أمنعك من الاجتماع معها أبدا، ولئن شئت لأفارقنها من أجلك، فجزاه خيرا وأثنى عليه وقال: إنما أن الطمع فيها

آفتى. والآن قد يئست وحملت نفسى على الصبر فإن اليأس يسلى، ولى أمور ولابد من رجوعى إليها، فإن وجدت بى قوة عدت إليكم وزرتكم، حتى يقضى الله من أمرى ما يشاء. فزودوه وأكرموه وشيعوه، ومضى راجعا إلى قومه.

يأس وخبل

وكان عروة يتماسك فى أول طريقه إلى قومه، ثم لم يلبث أن أصابه خفقان وغشيان، فكان يلقى على وجهه خمارا لعفراء زودته به، فيفيق، وينشد:

بِنَا من جَوى الأحزانِ والبعدِ لوعةٌ تكادُ لها نفسُ الشفيق تذوبُ
وما عجبى موت المحبين فى الهوى ولكنْ بقاءُ العاشقين عجيبُ

وانتهى إلى أهله: وقد سُلب عقله ومسه الخبل، ولم يعد يعى شيئا مما حوله، وأقام أياما لا يتناول طعاما، فخرجوا به ليلة إلى فضاء ليتنزه، فسمع رجلا يقول لابنه: على أى ناقة حملت قِرَبَ الماء؟ فقال على العفراء (ناقة) ولم يكد عروة يسمع ذلك حتى أغمى عليه، فلما أفاق أنشأ يقول:

وإنى لتعرونى لذكراكِ رِعْدةٌ لها بين جلدى والعظامُ دبيبُ
فوالله لا أنساكِ ما هبَّت الصَّبا وما أعقبتْها فى الرياح جَنوبُ

التداوى من الحب

واشتد الخبل والهذيان بعروة كما اشتد به الضنا والنحول حتى لم يكد يبقى منه شىء فقال قوم: إنه مسحور وقال قوم: بل به جِنَّة وقال آخرون: بل هو موسوس، ثم قالوا لأهله: إن فى اليمامة (بالجنوب الشرقى من بلاد العرب) عرَّافا طبيبا حاذقا يداوى من الجن، وهو أطبُّ الناس، فلو أتيتموه، فلعل الله يشفيه، فساروا إليه من أرض بنى عذرة (فى شمالى الحجاز) فجعل

يسقيه السلوان وهو لا يزداد إلا سقما، فقال له عروة: هل عندك للحب دواء أو رقية، فقال: لا والله. فانصرف عنه مع أهله، وهو يقول:

أقول لعرَّافِ اليمامة داوني ... فإنك إن داويتنـي لطبيبُ
وما بيَ من خبلٍ ولا مسِّ جِنَّةٍ ... ولكنَّ عمّى يا أخيَّ كذوبُ
فواكبدا أمسيتُ رُفاتاً كأنما ... يلذّعها بالموقدات طبيبُ
عشية لا عفراءُ منك بعيدةٌ ... فتسلو ولا عفراء منك قريب

وسمع أهله بعراف آخر في الحِجْر بالقرب من ديارهم، فقصدوه به، فعالجه، وصنع به مثل صنيع عراف اليمامة فلم يزد إلا ضنى وسقما. وقال له عروة: والله ما دائى ودوائى إلا شخص مقيم بالشام، فهو دائى وعنده دوائى وهو الذى أمرضنى وأضنانى. فيئس العراف من شفائه، ومضى به أهله إلى ديارهم يائسين وهو ينشد في الحين بعد الحين:

جعلت لعرَّاف اليمامةِ حكمه ... وعرَّاف حِجْرٍ إنْ هما شفيانى
فقالا: نعم، نشفى من الداء كله ... وقاما مع العُوَّاد يبتدرانِ
فما تركا من رُقْيةٍ يعلمانها ... ولا سلوةٍ إلا وقد سقيانى
وقالا: شفاك الله، واللهِ ما لنا ... بما حُمِّلتْ منك الضلوع يدان

موت العاشقين

ومازال عروة يعانى من حبه، وأهله يعنون به، حتى أصبح خيالا، والناس ينظرون إليه ويتعجبون من أمره، والموت يروح ويغدو بين عينيه. وظل على ذلك الحال حتى فاضت نفسه، وهو يقول:

من كان من أخواتى باكياً أبدا ... فاليوم إنّى أرانى اليومَ مقبوضا

وبرزت أخواته فشـقق ثيابهن وضربن خدودهن، فأبكين كل من حضر، ومـات من يومـه. ولما بلغ موته عفراء قالت لزوجهـا: قد كان من أمر عروة ما بلغك ووالله ما كان ذلك إلا على الحسـن الجميل وقد مات بسببى ولا بد لى أن أقيم مأتما عليه وأندبه، فأذن لها فى ذلك. فشـدت الرحال إلى قبره وظلت تندبه ثلاثة أيام وهى تنشد:

فلا لقىَ الفتيانُ بعدكَ راحةً ولا رجعـوا من غيبةٍ بسـلام
ولا وضعتْ أُنْثَى تماماً بمثله ولا فَرِحـتْ من بعدهِ بغـلامَ

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتبكى حتى ماتت، فدفنت إلى جانبه، فنبتت من القبرين شجرتان، حتى إذا طالتا التفتا، فكان الناس يعجبون من ذلك.

❑❑❑

كُثَيِّر وعَزَّة

ابتداء الحب

كان كثيّر من قبيلة خُزَاعة، وكان شاعرا مبدعا، وكانت عَزَّة من قبيلة ضمرة. وتعلق بها وأكثر فيها من الغزل حتى عرف بها، فسمى كثير عزة، وكانت أول علاقة له بها أنه خرج خلف غنم يسوقها إلى موضع بالقرب من المدينة فلما كان بمنازل بنى ضمرة مر بنسوة فسألهن عن الماء، فقلن لعزة، وهى جارية قد كعب ثدياها: أرشديه إلى الماء، فأرشدته وأعجبته، وغابت قليلا، ورجعت إليه وهو يسقى غنمه، فقدمت له طائفة من الدراهم، وقالت: يقلن لك النسوة: بعنا بهذه الدراهم كبشا من غنمك، فأمر غلاما معه أن يدفع إليها كبشا، وقال لها: رُدِّى الدراهم وقولى لهن: إذا غدوت عليكن اقتضيت حقى.

فلما غدا عليهن فى اليوم الثانى جاءته امرأة منهن بدراهمه، فقال: أين الصبية التى أخذت منى الكبش، قالت: وما تصنع بها؟ إنها عزة وما شأنك؟ فقال: عزة غريمى، ولست آخذ حقى إلا منها، فمزحت معه وقالت: عزة جارية صغيرة، وليس فيها وفاء لحقك، فأحله علىّ أو على إحدى النسوة اللائى رأيتهن فإننا أملأ به منها وأسرع له أداء، فقال: ما أنا بمحيل حقى عنها وأنشد:

قضى كلُّ ذى دينٍ فوفىّ غريمَهُ وعَـزَّة ممطولٌ مُعنًّى غريمُهـا

ومضى لوجهه، ثم رجع بعد أن فرغ من بيع غنمه، يسأل عن عزة وينشد:

نظرتُ إليها نظرةً وهْى شاخص ... على حين أن شبَّتْ وبان نهُودها
من الخَفِرات البِيض ودَّ جليسُها ... إذا ما انقضتْ أحدوثةٌ لو تُعيدها
نظرتُ إليهـا نظرة ما يسرُّنى ... بهـا حُمْـرُ أنعـامِ البلادِ وسُودُها

ولما أبى أن يأخذ الدراهم إلا أن يراها أبرزتها له المرأة وهى كارهة لذلك. وأحبته عزة بعد ذلك أشد من محبته لها.

غلام لكثير مع عزة

وكان لكثـير غـلام تاجر فبـاع من عزة بعض سـلعه وماطلته مدة وهو لا يعرفها، فقال لها يوما: أنت والله كما قال مولاى كثير:

قضى كلُّ ذى دَينٍ فوفَّى غريمَه ... وعـزةُ ممطـولٌ مُعَنًّى غريمُهـا

فانصرفت عنه خجلة، فقالت له امرأة: أتعرف عزة؟ قال: لا والله، قالت: فهذه عزة، قال: لا جرم والله لا آخذ منها شيئا أبدا. ورجع إلى مولاه فأخبره بذلك، فأعتقه ووهب له المال الذى كان فى يده.

لقـــاء

سـار كثيِّر إلى صديق من حىّ عزة فنزل عنده، وتوسـل إليه أن يجمعه بعـزة، فصار به إلى منزله، حتى كان العشـاء، فأخذ خاتمه، وجاء بيتها، فسـلم، فخرجت إليه فأعطاها الخاتم، فقالت: أين الموعد؟ فقال: شجرات أبـى عبيد الليلة، ورجع إليه، فأعلمه. فلما جن الليل قال له كثير: انهض بنا ونهض معه فجلسا هناك يتحدثان حتى أقبلت، فجلست. وتحدث كثير وعزة فأطالا، وأراد الرجل أن يدعهما وشـأنهما، فذهب يقوم، فقال له كثير

إلى أين تذهب، فقال: أخليكما ساعة لعلكما تتحدثان ببعض ما تكتمان. فقال له كثير: اجلس فوالله ما كان بيننا شيء قط. فجلس الرجل وهما يتحدثان وبينهما شجرة عظيمة وهي من ورائها جالسة، وما زالا كذلك حتى برق الصبح، فقامت وودعت وانصرفت.

امتحان

أرادت عزة أن تمتحن كثيرا وترى ما لها عنده، فانتقبت يوما ومرت به، فرآها وهي تتبختر في مشيتها، فلم يعرفها، فاتبعها وقال: يا سيدتي قفي حتى أكلمك فإني لم أر مثلك قط فمن أنت ويحك؟ قالت: ويحك وهل تركت عزة فيك بقية لأحد؟ وإنها لك في صدق المودة ومحض المحبة والهوى على حسب الذي كنت تبدي لها من ذلك وأكثر، وأين قولك:

إذا وصلتْنا خَلَّةٌ كي نُزيلها أبَيْنا وقلنا الحاجبية أولُ

فقال كثير: بأبي أنت وأمي أقصري وكفي عن ذكرها، واسمعي ما أقول، ثم أنشدها قوله، وقد صنعه توا:

ما وصلُ عزَّةَ إلا وصل غانيةٍ في وصل غانيةٍ من وصلها خلفُ

ثم قال لها: هل لك في المصادقة والمخاللة؟ فقالت: كيف بعد الذي قلته في عزة وسار في الناس من غزلك وشعرك، ثم سفرت عن وجهها وقالت: أغدرا وانتكاثا يا فاسق؟! فبهت ولم ينطق بكلمة وتحير وخجل، ثم إنها أخذت في بيان غدره ونكثه وقلة حفاظه ونقضه للعهد والميثاق، ثم قالت: لله جميل حيث يقول:

لحَى اللهُ من لا ينفع الودُّ عنده ومن حَبْلـه إن مُدَّ غير متينِ
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم على العهد حلاَّفٌ بكل يمين

فأنشا كثير يعتذر إليها ويتنصل بانخزال وانكسار، وأخذ يحتال فى دفع زلته، وهى تؤنبه أعنف تأنيب، وهو يقول لها: ألم تسمعى قولى:

يزهِّدنى فى حب عزَّةَ معشرٌ ... قلوبهمُ فيها مخالفةٌ قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللبِّ
وما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الآذانُ إلا من القلبِ

ولم تأبه له، وانصرفت عنه غاضبة.

امتحان ثان

وأرادت عزة امتحان كثيِّر مرة ثانية، فقالت لبثينة صاحبة جميل: تصدَّىْ لكثير وأطمعيه فى نفسك حتى أسمع ما يجيبك به، فأقبلت إليه وعزة تمشى وراءها من بعيد متخفية. وعرضت بثينة على كثير الوصل، فقاربها وهو ينشد:

رمتنى على عمدٍ بثينةُ بعدما ... تولى شبابى واقْبلنَّ شبابها
بعينين نجلاوين لو رقرقتْهما ... لنجم الثريا لاستهلَّ سحابها

فكشفت عزة وجهها، فبادرها الكلام، وأتم شعره قائلا:

ولكنما ترمين نفسا مريضةً ... لعزةَ منها صفْوُها ولُبابها

فضحكت، ثم قالت بثينة: أولى لك منى! نجوت. ومرتا تتضاحكان.

عزة تتزوج

تدافعت الريب والشكوك على عزة، وظنت أن كثيرا غير صادق فى هواها، فاحتجبت عنه، وتقدم لها فتى من عشيرتها يطلب الزواج بها فتزوجته. وكان كثير قد غاب عنها فى مديح بعض الرؤساء والحكام، لعله

يصيب من المال ما يمكنه من زواجها، فأصاب خيرا. ثم قدم فوجدها قد تزوجت، فجزع وبكى أشد بكاء، وكان مما أنشد:

خَلِيلَيَّ هذا رَبْعُ عَزَّةَ فاعْقِلا ... بعيريكما ثم ابْكيَا حيث حَلَّتِ
وما كنتُ أدرِى قبل عَزَّةَ ما البكا ... ولا موجِعاتِ القلب حتى تَوَلَّتِ
كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتْ ... من الصُّمِّ لو تمشى بها العُصْمُ زلَّتِ
صَفُوحاً فما تلقاكَ إلا بخيلةً ... فَمَنْ مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلَّتِ
أصاب الرَّدَى مَنْ كان يهوى لكِ الرَّدَى ... وجُنَّ اللواتى قلن عَزَّةُ جُنَّتِ
وما أنصفت أما النساء فَبغَّضتْ ... إلىّ وأما بالنوال فضنَّتِ

وأصبح لا يهنأ له طعام ولا شراب، حتى أخذه الضنا والسقام، فكان يرحل فى الصحراء رحلات بعيدة يطلب السلو والنسيان.

كثير ومجنون ليلى

وخرج كثير مرة يسير فى الفيافى، فإذا رجل معه ظبى، فسلم عليه فرد السلام، فقال له: أتطعمنى من هذه الظبية التى معك؟ فقال إى والله. فنزل، فعقل ناقته وجلس يحدثه، وإذ هو أحسن خلق الله حديثا وأرقه وأغزله، وأقبل على الظبية يقول:

أيا شبه ليلى لن تراعى فإننى ... لك اليوم من بين الوحوش صديقُ
ويا شبه ليلى لن تزالى بروضةٍ ... عليك سحابٌ دائمٌ وبروقُ
فديتك من أخذٍ دهاك لحبِّها ... فأنتِ لليلى ما حييتِ طليقُ

ثم أطلقها، فمرت تجرى. فعجب كثير من شأنه، وقال لا أبرح حتى أعرف أمر هذا الرجل، فلما أمسى قام إلى غار قريب من الموضع وقام معه كثير، فباتا فى الغار. فلما أسفر الصباح قام وإذا ظبية تعدو فعدا خلفها حتى أمسك بها ونظر فى وجهها مليا، ثم أطلقها فمرت وأنشأ يقول:

اذهبى فى كَـلاءة الرحمـن أنت منى فى ذمـةٍ وأمـانِ
ترهبينى والجِيد منك كليلى والحشا والنحول والعينان
لا تخافى فلن تفاجى بسوءٍ ما تغنى الحمام فى الأغصان

وظل كثير معه يومه، ولما أمسيا صارا إلى الغار فباتا فيه. ووقعت لهما فى الصباح ظبية فوثب المجنون خلفها، حتى أمسكها، وأراد أن يطلقها، فقبض كثير على يده، وقال له: لقد متنا من الجوع وكلما أمسكت بظبية أطلقتها، فنظر فى وجهه وعيناه تذرفان وبكى كثير لبكائه، وسأله نسبه، فعرف أنه مجنون ليلى، فودعه، ومضى لوجهه.

عتاب

ومر كثير فى بعض غدواته وروحاته على حىّ عزة وهو راكب بعيره، فرآها فى نسوة فأقبل عليها وقال: السلام عليك يا عزة، فقالت: عليك السلام يا جمل، فنزل عن الجمل وأطلقه وأنشد:

حَيُّتْكَ عزَّةُ بعد الهجر وانصرفتْ فحَىَّ ويحكَ مَنْ حيَّاك يا جملُ
لو كنتَ حَيَّيْتَها ما زلتَ ذا مِقَة عندى وما مسَّك الإدلاج والعملُ
ليتَ التحيَّةَ كانت لى فأشْكرُها مكانَ يا جملٌ حُيِّيتَ يا رجلُ

فالتفتت إليه معاتبة، وقالت: ويحك ألا تتقى الله، أرأيت قولك الذى أشهرتنى به:

بآيةِ ما أتيتُكِ أُمَّ عمرو فقمتِ لحاجتى والبيتُ خالى

أخلوت معك فى بيت قط، فقال: لم أقل ذلك أبدا، ولكننى قلت:

وأقسم لو أتيتُ البحرَ يوماً لأشربَ ما سقتْنى من بِلالِ

فقالت: أما هذا فنعم، ثم قامت، فمرت إلى خبائها، وهو يتبعها بعينه ويبكى وينشد:

اللّه يعلم لو أردتُ زيادةً ... فى حب عزّةَ ما وجدت مزيدا
رهبان مَدْين والذين عهدتمُ ... يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها ... خَرُّوا لعزة خاشعين سجودا
والمَيْتُ يُنْشَر إن تمسَّ عظامه ... مسًّا ويخلد إن يراكِ خلودا

فى الطريق إلى الحج

حج كثير فى سنة من السنين وحج زوج عزة بها ولم يعلم أحد منهما بصاحبه، فلما كانوا فى بعض الطريق أمرها زوجها أن تبتاع سمنا من بعض من فى القافلة تصلح به طعاما لأهل رفقته، فجعلت تسأل فى القافلة، حتى لقيت كثيرا وكان يبرى أسهما له، فلما رآها جعل ينظر إليها وهو مستمر فى بريه للسهام. فبَرى ساعده وهو لا يشعر فجرى الدم منه، فلما تبينت ذلك أمسكت يده وجعلت تمسح الدم عنها بثوبها، وقال لها: عم تبحثين، فعرفته بغيتها، وكان عنده قدح سمن فحلف لتأخذنه. فأخذته وجاءت به إلى زوجها. فلما رأى الدم سألها عن خبره فكاتمته، حتى حلف لتصدقنه فصدقته، فحلف لترجعن وتشتمن كثيرا فى وجهه، وجاء بها إليه، فوقفت عليه وهو معها، فسبته وهى تبكى، وعرف كثير سبب بكائها فقال:

يكلِّفها الخنزير شتمى وما بها ... هوانى ولكن للمليك استذلَّتِ
هنيئا مريئا غير داءٍ مخامرٍ ... لعزة من أعراضنا ما استحلَّتِ
وقلت لها يا عَزُّ كل مصيبةٍ ... إذا وُطِّنَتْ يوما لها النفسُ ذلَّتِ

مرض عزة وموت كثير

ومرضت عزة مرضا شديدا، وسمع بذلك كثير، فجزع عليها جزعا ممضا، وألمَّ بدارها يسأل عنها وينشد هذه الأبيات:

يقولون سـوداءُ العيون مريضـة ... فأقبلتُ من أهـلى إليهـا أعودُها
فوالله مـا أدرى إذا أنا جئتهـا ... أأبرئهـا من دائهـا أم أزيدهـا
إذا جئتها وَسْـط النساء منحتها ... صدودا كأن النفس ليس تريدهـا
ولى نظرة بعد الصدود من الجَوى ... كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها

وعوفيت ليلى، ولم تمض إلا مدة يسيرة، حتى مات كثير، فخرجت عزة إلى جنازته ومعها كثير من النساء يبكينه ويندبنه ندبا حارا.

❑❑❑

تَوْبة ولَيْلى الأخْيليَّة

نشأة الهوى

كان توبة شـابا شجاعا مبرزا فى قومه آل خفاجة سخيا فصيحا مشهورا بمكارم الأخلاق ومحاسـنها، وكان قومه ينزلون فى بادية الحجاز مجاورين لبنى الأخيل العامريين، ويذهبون معهم فى الحروب والغزوات. وكان شـيخ بنى الأخيل حذيفة بن شـداد، وكان له ابنة شاع فى العرب ذكرها بالحسن والفصاحة وحفظ أنساب العرب وأيامها وأشعارها، وحدث أن غزا بنو خفاجة وبنو الأخيل يوما. فلما رجعوا من غزوهم حانت من توبة التفاتة. وقد برزت النساء للقاء القادمين من الغزو، فرأى ليلى، فافتتن بها، فجعل يعاودها، فيتحادث معها، إلى أن أخذت قلبه وأطارت لبه، فشكا لها يوما ما نزل به منها، فأعلمته أن بها منه أضعاف ذلك فأقاما على التزاور وشكاية الهوى.

زواج ليلى

كان توبة يقول الشـعر فى ليلى. فخطبهـا إلى أبيها، فأباها عليه لعادة العـرب ألاَّ يزوجوا بناتهم لمن يتغزل بها ويشـهر فـى الناس اسمها، وتقدم إليها شاب من عشيرة بنى الأدلع فزوجها أبوها له، فقلق توبة. وكان يترقب غفلات الحى فى الليل فيزورها.

فلما كثر منه ذلك خرج أبوها وزوجها ومعهما نفر من قومهما إلى السلطان، فشكوا إليه ما نالهم من توبة وما شهرهم به. وسألوه الكتاب إلى عامله عليهم

بمنعه من الإلمام بليلى والكلام إليها أو الحديث معها، فكتب لهم كتابا إلى عامله يأمره فيه أن يحضر توبة ويتقدم إليه فى ترك زيارة ليلى، فإن أصابه أهلها عندها فقد أهدر دمه. فلما ورد الكتاب على عامله بعث إلى توبة وأهله فجمعهم وقرأ عليهم كتاب الخليفة، وقال لتوبة: اتق الله فى دمك لا يذهب هدرا. وخرج مع قومه فأخذوا يلومونه وينهونه عن الاقتراب من ليلى ودارها، فبكى. وسمع حمامة تترنم. فقال:

حمامةَ بطنِ الواديين ترنَّمى ... سقاكِ من الغُرِّ الغوادى مَطيرُها
أبينى لنا لا زال ريشُكِ ناعما ... ولا زلتِ فى خضراءَ غَضٍّ نَضيرُها
يقول رجال لا يضرُّك نأيُها ... بَلَى كلّ ما شقَّ النفوسَ يضيرها
وإنى ليشفينى من الشوق أن أرَى ... على الشَّرفِ النائى المخوف أزورها
أرى اليوم يأتى دون ليلى كأنما ... أتت حِجَجٌ من دونها وشهورها

علامة بين العاشقين

ظل توبة يزور ليلى خفية ، فطلبه قومها ، ولما خافت عليه منهم جعلت بينه وبينها أمارة ، فقالت له : إذا مررت فوجدتنى مبرقعة فاجلس إلى مطمئنا فلا حرج حينئذ ، فإذا رأيتنى سافرة فلا تقرب منى واحتط لنفسك وخذ الحذر.

ودخل على ليلى زوجها، وكان غيورا، فحلف إن جاءها توبة ولم تعلمه بمجيئه ليقتلنها، وكانت تعرف الجهة التى يجيئها منها، فرصدوه بموضع، ورصدته بآخر. فجاء، فأسرعت وألقت البرقع عن رأسها. فلما رآها سافرة فطن لما أرادت وعلم أنه قد رُصد وأنها سفرت لذلك تحذره. فركض فرسه وتولى آسفا وهو ينشد:

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعتْ فقد رابنى منهـا الغداة سـفورُها
وقـد رابنى منهـا صدودٌ رأيتـه وإعراضُها عن حاجتى وقصورها

زيارة

ولما اشتد زوج ليلى وأهلها عليها فى مراقبتها ظلت لا تمكنه من زيارتها ولقائها إشـفاقا عليه وخوفا على نفسـها، وخرجوا فى نجعة، فأرسلت إليه من يخبره. فذهب إليها وتحادثا وتشـاكيا ما يلقيان من الوجد وما زال معها حتى انكشف النهار، فودعها ومضى وهو يقول:

أليس يضرُّ العينَ أن تكثر البكا ويُمْنع منهـا نومهـا وسرورهـا
لكلِّ لقـــاءٍ نلتقيـه بشاشـــةٌ وإن كان حولا كل يوم نزورها

عتـــاب

بلغ ليلى أن توبة يتحدث فى شـعره عـن زياراته لها وأنـــها تلقاه فى خِبائهـا، فغضبت غضبا شـديدا، وقالت: إنه يقول مـا يريبنى وما التقيت معه إلا على عفاف. وأمسـكت عن لقائه فتوسـل إليها بكل وسيلة أن تلقاه. فأبت ذلك إباء شـديدا، وقالت إنه يريد أن يفضحنى بما لم يحدث. فأرسل إليها أنه سيتناول السم أو يلقى بنفسه من رأس جبل، فرقَّت له، ودعته إلى زيارتهـا بعد أن جمعت ثلاثة من أهلها، بحيـث يخفون عليه. فلما جاءها قالت له: أى خدر دخلت معى حتى تشـيع ما تشيع، فاعتذر إليها وتنصل جهـده، وقال لها: إن الوشـاة الأعداء هم الذين يشـيعون ذلك حتى يفرقوا بيننا، وأما أنا فقلت:

علىّ يمـينُ اللّـه إن كان بَعْلهـا يرى لىَ ذنبا غـير أنـى أزورهـا
وإنى إذا ما زرتها قلت يا اسلمى وما كان فى قولى اسلمى ما يَضيرها

فسرت لقوله، ولسماع أهلها ما يبرئ ساحتها.

رقابة الزوج

وكان زوج ليلى لا يزال يراقبها ويرتاب في أمرها، وكلما رأى حول بيته شبحا ظنه توبة وأنها على موعد معه. فمن ذلك أن رجلا من عشيرة أخرى غير عشيرتها ابتغى إبلا له ضلت منه، وما زال يبحث عنها، حتى دخل عليه الليل بالقرب من خباء ليلى. فنزل حيث ينزل الضيف، وأبصرته ليلى ولم تكلمه لأن زوجها كان غائبا. فلما كان بعد هدأة من الليل، وتراءى شبح الرجل من بعيد، فخاله زوجها توبة. فدخل عليها يناجيها ويقول: ما هذا السواد حذاءك؟ قالت: راكب أناخ بنا حين غابت الشمس ولم أكلمه. فقال لها: كذبت، ما هو إلا توبة أو بعض أصدقائك. ونهض يضربها وهي تناشده. فقال لها: والله لا أترك ضربك حتى يأتي ضيفك هذا فيغيثك. فلما عيل صبرها قالت: يا صاحب البعير، يا رجل. وأقبل الرجل يسرع حتى أتاها وزوجها يضربها، فأخذ بخناقه. فتعرضت ليلى للرجل وقالت له: يا عبد الله: مالك ولنا؟ نَحِّ عنا نفسك.

وانصرف الرجل، حتى إذا كان الغد ألم بالحيّ، ورأى غنما فيها راعية، فسألها عن أشياء، حتى بلغ به الذكر، فقال لها أخبريني عن أصحاب الخباء الفلاني وعين لها الخباء الذي رأى فيه حادث الأمس. فضحكت وقالت له: إنك تسألني عن شيء أنت به عالم، فقال: وما ذاك؟ لله بلادك؟ فوالله ما أنا به عالم، قالت: ذاك خباء ليلى الأخيلية وهي أحسن الناس وجها، وزوجها رجل غيور، فهو يعزب بها عن الناس فلا يقيم بها معهم، وما يقربها أحد ولا يضيفها. فكيف نزلت أنت بها؟ فقال: إنما مررت فنظرت إلى الخباء ولم أقربه، وكتم عنها الأمر.

زواج توبة

لما بالغ زوج ليلى فى مراقبتها هجرت توبة، فأضناه الشوق حتى أسقمه، فلامه رفقاؤه، وقالوا له إنك تضيع عمرك وراء ذات بعل، وأولى لك أن تطلب غيرها، وفى العرب جميلات كثيرات، فارفق بنفسك وتزوج من امرأة لعلها تنسيك صبابتك بليلى، واحذر لقاءها، فإن زوجها بالمرصاد وقد أهدر السلطان دمك، فلا تغرر بنفسك.

ونزل توبة فى بعض نجعات قومه برجل أكرمه، وكان له ثلاث بنات، وأعجب به فعرض عليه إحداهن ليكون بعلا لها، فاختار كبراهن، ومكث معها عند أبيها مدة، ولكنها لم تُنْسه ليلى، فقد عاوده الحب وعاودته أسقامه.

ريبة عارضة

عاد توبة إلى قومه، وجعل يزداد به الوجد، وينشد فى ليلى أشعاره، وهى معرضة عنه، لما عرفت من زواجه. غير أنه لم يكف عن الإلمام بدارها حتى جانبت له يوما فرصة، فحدَّثها وحدَّثته، وكان أول ما قالت له: إنك قد علقت بأخرى فما لك لا تكف عنا، فحلف لها أنه لم يقربها وأنه لا يزال يحفظ ودها وعهدها، ثم بدرت منه كلمة ظنت أنه خضع فيها لبعض الأمر، فقالت له:

وذى حاجةٍ قلنا له: لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونه ... وأنتَ لأخرى فارغٌ وخليلُ

فظن أنها استرابت منه، فحلف أنه لم يرد سوءًا، فاستشاطت غضبا وودعها على استحياء ومضى.

الرحيل إلى الشام

ولما لج بتوبة الحب نصحه بعض أهله أن يرحل إلى الشام غازيا، لعله ينسى حبه، واستمع إلى نصحهم، فخرج إلى الشام ومر ببنى عذرة، فرأته بثينة، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميل، فقال له جميل: من أنت؟ قال أنا توبة الخفاجى، فقال له: هل لك فى الصراع؟ قال: ذلك إليك، فشدت عليه بثينة ثوبا مصبوغا، فلبسه، ثم صارع توبة فصرعه. ثم قال له: هل لك فى النضال ورمى السهام؟ قال: نعم فناضله، فنضله. ثم قال له: هل لك فى السباق؟ فقال نعم، فسابقه، فسبقه. فقال له توبة: يا هذا إنما غلبتنى بما شدت من عزيمتك هذه الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادى، فصرعه توبة ونضله وسبقه.

العودة سريعا

لما دخل توبة الشام أقام بها يسيرا، ولم يستقر به المقام، فقد كانت تعاوده ذكرى ليلى الأخيلية، وكان يخرج إلى التلال والروابى، ليعزى نفسه، وجزع جزعا شديدا وأصبح دأبه البكاء، فلم يلذ له حال، ولا نعم له بال. فعاد إلى قومه، وحين دخل حىّ ليلى لقى صغيرا يلعب، فقال له: هل أنت عارف بليلى؟ قال: نعم. قال: امض وأنشد:

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعتْ فقد رابنى منها الغداةَ سفورُها

وعد إلىّ وقل لى ما تجيبك به. فمضى الغلام، فأنشد ليلى البيت، فعلمت أن توبة قد ورد الحىّ، فقالت للغلام: قل له إنها الآن مبرقعة، فمضى الغلام إليه وأعلمه ذلك، فأقبل إليها فجدد زيارتها على خيفة من زوجها.

موت توبة

كان بين بنى خفاجة قوم توبة وبعض قبائل العرب حروب وثارات، وكانت المعارك لا تزال ناشبة بينهما، فاشترك توبة يوما فى بعض هذه المعارك، وأبلى بلاء حسنا، ولكن سهما أصابه من بعض الأعداء، فخر مغشيا عليه وحضرته الوفاة، فقال له ابن عم له: هل لك حاجة أبلغها إلى أهلك، فقال: نعم تبلغ ليلى الأخيلية هذه الأبيات:

ولو أنَّ ليلى الأخيليَّة سلَّمتْ ... علىَّ ودونى تُرْبةٌ وصفائحُ
لسلَّمتُ تسليم البشاشة أو زَقا ... إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ
ولو أن ليلى فى السماء لأصعدتْ ... بطرفى إلى ليلى العيونُ الكواشحُ
أأغبط من ليلى بما لا أنالُه ... ألا كل ما قرَّت به العين صالحُ
وهل تبكيَنْ ليلى إذا متُّ قبلها ... وقام على قبرى النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموتُ ليلى بكيتها ... وجاد لها جارٍ من الدمع سافحُ

فقال: إنى مبلغها، فقال توبة: وهل لك فى أخرى؟ جزاك الله خيرا قال: ما هى؟ قال: إذا بلغت الحىّ فاصعد إلى شرف (مكان عال) ثم اهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيتنَّ ليلةً ... من الدهر لا يَسْرِى إلىَّ خيالها

فأقبل الرجل على ليلى فأبلغها أبيات توبة، فبكت بكاء شديدا. ثم صعد شرفا، وأنشد البيت، فأجابت ليلى:

وعنه عفا ربى وأحسن حفظه ... عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالُها

ليلى تندبه حتى الموت

وأسرعت ليلى فخلعت زينتها، وأقامت على الحزن طوال حياتها من بعد توبة، لا يهنأ لها طعام ولا شراب. وأكثرت من ندبه والنواح عليه من مثل قولها:

لتبك عليه من خفاجةَ نسوةٌ بدمعٍ كفيض الجدول المتفجِّرِ

وقولها:

فلا يبعدنْك اللّه يا توبَ هالكا أخا الحرب إن دارت عليك الدوائرُ
وآليتُ لا أنفكُّ أبكيك ما دعتْ على فَنَنٍ ورقاءُ أو طار طائر

ولها فيه قصائد وأشعار كثيرة، تندبه بها ندبا حارا، وكانت لا تقبل من سفر إلا تمر بقبره وتبكيه بكاء مرا، وأقبلت على القبر يوما ومعها زوجها، وهى فى هودج لها، فقالت: والله لا أبرح حتى أسلم على توبة. وتركها زوجها فصعدت أكمة عليها القبر، فقالت: السلام عليك يا توبة، ثم التفتت إلى من معها من القوم وقالت: ما باله لا يسلم على، تشير إلى قوله

ولو أنَّ ليلى الأخيليَّة سلَّمتْ علىَّ ودونى تُرْبةٌ وصفائحُ
لسلَّمتُ تسليمَ البشاشة أو زَقا إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ

وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت الهودج فزعت وطارت فى وجه الجمل، فنفر، فرمى بليلى على رأسها، فماتت من وقتها، فدفنوها بجواره.

❑❑❑

الصِّمَّة وريَّا

تعارف مبكر

كان الصمة القُشَيْرى فتى من فتيان بنى عامر ومن شجعانهم وشعرائهم، وقد تعلق حين شب بابنة عمه ريا وكانت ذات حسن وظرف تعرف أيام العرب وأشعارها، وقد نشآ معا، فكانا يتذاكران الأخبار ومُلَح الشعر وما جرى منه على ألسنة العشاق.

وأعجب بها الصمة إعجابا ملك عليه قلبه وذهب بلبه، ولم يكن عندها من الحب مثل ما عنده منه، فلما شكا ما يجد منها إلى بعض رفقائه نصحوه أن يطلبها من عمه فإنه لن يرده خائبا.

الصمة يخطب ريا

وذهب الصمة إلى عمه فخطب منه ابنته ريا، فقال له لا أزوجها إلا على مائة من الإبل، فذهب إلى أبيه فأعلمه ذلك وشكا إليه ما يجد بها، فأعطاه تسعة وتسعين بعيرا، وقال له: هى كل ما أملك، ولعل عمك يقبلها. فلما جاء بها عمه عدها، فوجدها تنقص بعيرا، فقال: لا آخذها إلا كاملة. فلما رأى ذلك من فعله أرسلها فعاد كل بعير منها إلى ألاَّفه، وأخذ يبكى نفسه وحظه.

زواج ريا

وخطب ريا من أبيها أحد فتيان بنى عامر، وكان موسرا، فأوفى له بما أراد من الإبل، وزفها إليه، فوجد بها الصمة وجدا شديدا وأظلمت الدنيا فى عينيه، وحاول أن يلم بها أو يلقاها، فصدته عنها فبكى وأنشد:

لعمرىَ إن كنتم على النَّأْيِ والقِلَى بكم مثلُ ما بى إنكم لصديقُ
إذا زفراتُ الحبِّ صَعَّدن فى الحشا رُدِدنَ ولم تُنْهَجْ لهن طريق

الرحلة إلى الغزو

ولما تنازع الصمة الشوق مرض حتى أضناه السقم، فأخذه أبوه إلى كاهن، لعله يشفيه مما به، وكان الكاهن يسمى غاوى بن رشيد، فلما سأله عن مرضه، وألح فى السؤال، قال:

حننتُ إلى رَيَّا ونفسُك باعدتْ مزارك من ريا وشِعباكما معا
وما حَسَنٌ أن تأتىَ الأمرَ طائعاً وتجزعَ أَنْ داعى الصبابةِ أسمعا
كأنَّك لم تشهدْ وداعَ مُفارقٍ ولم تر شِعبى صاحبين تقطَّعا
بكت عينىَ اليسرى فلما زجرتُها عن الجهل بعد الحلم أسْبلتا معا
وليست عَشِيَّات الحِمَى برواجعٍ إليكَ ولكنْ خَلِّ عينيكَ تدمعا

فقال الكاهن لأبيه: إنه يشكو العشق لا غيره، وليس له دواء عندى، إنما دواؤه الرحلة حتى ينسى. فعاد به أبوه إلى الحىّ وأخذ رفقاؤه يحثونه على الغزو والجهاد مع المحاربين فى بلاد إيران، فأقام مقاما يسيرا، ثم رحل مع جماعة كانوا راحلين نحو العراق، وألم ببيت ريا، فخرجت إليه تودعه، فذكرا ما كان بينهما وأنشد:

أما وجلالِ اللّه لو تذكرينني كذكريك ما كفكفتُ للعين مدمعا
فقالت بلى والله ذكرا لو إنه يُصَبُّ على صُمّ الصَّفا لتصدَّعا

وتركها وهو ينشج آحرّ نشيج، ولما بعد عن الحى أظهر تولها شديدا، فصبَّره رفاقه، وأخذوا يعزونه عنها، وهو يلتفت إلى ديارها ويقول:

ولما رأيت «البشْر» قد حال بيننا وجالتْ بناتُ الشوق فى الصَّدْر نُزَّعا
تلفتُّ نحو الحى حتى وجدتنى وَجِعْتُ من الإصغاء ليتاً وأَخْدَعا

وجدَّت الرفقة فى سيرها، وهو مسلوب العقل ذاهل القلب، لا يتحدث إلا عن صاحبته وذكرياته وما كان من قساوة عمه، وما يزال ينشد:

وأذكر أيام الحِمَى ثم أنثنى على كبدى من خشيةٍ أن تصدَّعا

وما زالوا جادين فى المسير حتى وصلوا إلى نهر الفرات، فقالوا له: لقد خرجنا من جزيرتنا، فدع صاحبتك وانظر إلى نفسك فإنها لو كانت صادقة الود ما تزوجت ولا اختارت عليك، فالتفت إلى ورائه وإلى الرياح الوافدة من ديار ريا، وقال:

إذا ما أتتنا الريحُ من نحو أرضِكم أتتْنا بريَّاكم فطابَ هبوبُها
أتتنا بريح المسك خالطَ عنبراً وريحَ الخزامى باكرتْها جَنوبها

فظلوا يواسونه، ويقولون له إنك خرجت إلى الجهاد فى سبيل الله كى تنساها، وحرام عليك أن تعود إلى ذكراها لما أنت قادم عليه من لقاء الأعداء ومنازلة الفرسان.

الوفاة فى طبرستان

ولما التقى الجمعان أبلى فى الحرب بلاء عظيما ودل على فروسية وشجاعة باهرة، كانت مضرب الأمثال من الأبطال والشجعان. وكان ما يزال رفقاؤه يلحظون عليه تولعه بريا، فكانوا يسلونه، وهو عنهم ذاهل القلب، غافل عما يقولون.

وبينما هو ينازل قرنا من الأعداء تذكر ريا، فكف عن نزاله، وحاول أن يعود ليرجع إليها، ولكن القرن عاجله بطعنة نافذة، فخرَّ على الأرض،

فأسرع إليه رفيق فحمله، فإذا هو يتحرك ولا يتكلم، وأصغى إليه رفيقه، فوجده يتمتم بصوت خفي:

تَعزَّ بصبرٍ لا وجدٍّك لا ترى نساء الحِمَى أخرى الليالى الغوابرُ
كأنَّ فؤادى من تذكُّره الحِمَى وأهل الحِمى يهفو به ريشُ طائر

وما زال يردد هذين البيتين حتى فاضت نفسه.

وحمل نعى الصمة إلى أهله، فخرجت ريا ونساء الحى يندبنه ويبكين فيه الشجاعة والعفة، وبكاه الرجال ورثوه طويلا. ولم تطل الأيام بريا، فقد ماتت حزنا عليه وغما.

❑❑❑

مالِك وظَريفة

من أول نظرة

كان فى بنى عذرة شاب حسن الوجه عذب المنطق سخى الكف يسمى مالكا، خـرج يوما للصيـد، ومر فى طريقه على عين ماء، لبعض العشـائر من قبيلته، فوجد طائفة من النساء، اجتمعن عليها: يغترفن بعض الماء، ومن دونهن فتاة قد انفردت تمشـط شـعرها، وقد انسدل على وجهها، كأنه البدر يلمع فى الظلام، فحين أبصرها وقعت فى قلبه، ولم يكد يحدثها وتحدثه حتى سقط مغشيا عليه، فقامت إليه، فرشـت الماء على وجهه، فلما أفاق وأبصرها تسكب عليه الماء كى يفيق، قال: وهل مقتول يداويه قاتله، وأنشد يحكى حاله ومآله:

خرجتُ أصيدُ الوحشَ صادفتُ قانصاً من الرِّيم صـادتنى سـريعاً حبائلُـه
فلمـا رمـانى بالنِّبـال مُسـارعاً رقـانى، وهـل مَيْتٌ يداويـه قاتلُـه

فقالت له: كُفيت ما تشكو، وحادثته حتى ثابت إليه نفسه، وقد رقَّتْ له، ثم قامت فانطلقت مع النسوة وهى تنظر إليه، فأنشد باكيا:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمـن لا يحبّ ويعشـقُ

مرض طويل

وعاد الفتى إلى حيه، ولم يعد يخرج للصيد كعادته، ومرض ولزم الفراش، فأقسـمت عليه أمه أن يخبرها بحقيقة علته، فكان يخجل وينعقد لسـانه، ولما ألحت عليه أنشد متأثرا:

يا علَّةً طـالتْ على دَنِفٍ يشكو الفراقَ وقلَّةَ الصَّـبْرِ
ما كنت أعـلم أننى كلـفٌ حتى تَلِفتُ وكنت لا أدرى
والبدر يشـهدُ أننى هـائمٌ مُغْـرًى بحبِّ شبيهة البَدْرِ

وقصَّ عليها قصة رؤيته للفتاة، فسـألت عنهـا حتى عرفت أنها ظريفة بنـت صفوان، فمضـت إليها وأخبرتها بما آل إليه حالـه، وعرضت عليها أن تزوره، فقالت لها: إنى لا أسـتطيع والناس حولى، كلهم واش حسـود، فقالت لها: إنما رجوت بزيارتك أن يبلّ من مرضه، فأبت أن تجيبها إلى ما أرادت، وقصت خصلة من شعرها، وقالت لها: أعطه هذه الخصلة، لعله إذا أمسك بها زال عنه ما يجده وفارقه سقمه. فرجعت أمه إليه، وناولته خصلة الشعر فأخذ يقبلها ورجعت إليه نفسه قليلا قليلا.

محـاولات

وكان مالك كلما اشـتد عليه الوجد جعل على وجهه خصلة الشـعر التى بعثت ظريفة بها إليه مع أمه، فيسـتريح بعض الشـىء. ولما كان فى بعض أيامه وقد خرج ليستنشـق الهواء سـقطت منه الخصلة، فأظلمتَ الدنيا فى عينيه، وعاوده السقم والضنا وأخذ يبكى ويردد:

أكفكفُ جفنَ العين والدمعُ سافح كشبه غـديرٍ فـوق خـدَّىَ جاريـا
فيا ليتَ شـعرِى ذا البكاءُ إلى متى وحتَّى متى ذا الحزن والجسم باليا

وأخـذ يلم بدارها لعله يراها فى إحدى غدواتها أو روحاتها، ورآها يوما تسـير مع بعض النساء من أهلها، فخالسته وخالسـها النظر. ولم يستطيعا الكلام، ورأى دمعة تترقرق فى عينيها، فأنشد:

جلست لهـا كيما تمرُّ لعلنى أُخالسها التسليم إن لم تسلِّم
فلما رأتنى والوشـاةَ تحدَّرت مدامعهـا خوفـاً ولـم تتكلمَ

وتعـرض لها مرارا بعد ذلك، فلـم يرها، فعمد إلى غلام من الحىّ، فمنّاه الجزاء إن هو أنفذ له ما يريد منه، وسـأله الغلام ماذا تريد؟ فقال له: أريد منك أن تحاذى دار صفوان وتنشد هذه الأبيات:

مريضٌ بأفنـاء البيوت مطـرَّح ... أبى ما به من لاعج الشوق يبرحُ
وليس دواء الداء إلا بخيلـةٌ ... أضـرَّ بنـا فيهـا غـرامٌ مبرِّحُ
إذا ما سـألناها وصـالا تُنيلـه ... فصـمُّ الصَّـفا منها بذلك أسمح

وجعل يكررها عليه حتى حفظها. وحاذى دار صفوان، ورفع صوته بالأبيات، فعرفت ظريفة قائلها، وأنشدت تجيبه:

رعى الله من هـام الفؤادُ بحبِّه ... ومن كدتُ من شـوقٍ إليه أطيرُ
لئن كَثُرَتْ بالقلب أتراحُ لوعـةٍ ... فإن الوشـاةَ الحـاضرين كثير
وإن لم أزر بالجسم رهبة معشرٍ ... فبالقـلب آتـى نحوكـم فـأزور

ورجع الصبى إلى مالك فأنشده أبياتها، فسقط مغشيا عليه ساعة، ثم أفاق وهو يردد إهمال عشيرته وأبناء عمومته له قائلا:

أظـن هوى الخَوْد الغريرة قاتلى ... فيا ليت شعرى ما بنو العمِّ صُنَّعُ
أراكم - وللرحمن درّ صنيعكم - ... تركتم دمـى هَدْراً وخـاب المضيَّعُ

زواج ظريفة

أضنى الحب مالكا وبراه، فتوسـل إلى بعض أقاربه أن يخطبوا له ظريفة مـن أبيها، وذهبـوا إليه يخطبونها منه، فقال: إنـى لا أزوجها له بعد أن فضحهـا بشـعره، وردهم أقبح رد، ثم زوجهـا - على كره منها - لفتى من فتيان العشيرة تقدم إليها. ولما عرف مالك خبر زواجها أخذ يبكى بكاء مرا، فكان بنو عمه وأقرباؤه يواسونه ويعزونه، فكان يقول:

دعونى لما بى وانهضوا فى رعايةٍ من الله قد أيقنتُ أَنْ لست باقيا
وإذ قد دنا موتى وحانت منيَّتى وقــد جلبتْ عينى إلىّ الدواهيــا
أمــوت بشــوق فى فـؤاد مبرِّح فيا وَيْحَ نفسى مَنْ به مثل ما بيا

واشــتدت به العلة، حتى غدا كالخيال، وفى يــوم تتابع عليه الإغماء، وكان كلما أفاق من إغمائه ردد:

ليبكنى اليوم أهـلُ الود والشَّـفَقِ لم يبق من مهجتى إلا شَفا رَمقِ
اليوم آخـرُ عهـدى بالحياة فقـد خلصتُ من رِبْقة الأحزان والقلق

ولم يزل على ذلك حتى شهق شهقة فارق على إثرها الحياة. وعلمت ظريفة بموته فى حبها، فخرجت حتى انتهت إلى قبره فألقت نفســها عليه، وهى تبكى وتنشد:

اليوم أبكى لصــبٍّ شـفَّ مهجتَه طولُ السقام وأضنى جسمَه الكمدُ
أعِطْــرُ قبرك أسْرَى لى النسيمُ به أم أنت حيثُ يناط السَّحْر والكبد

ثم انثنت على صدرها وكبدها، فحركها من معها، فوجدوها ماتت، فدفنوها بجواره.

❑❑❑

ابن أبى عمَّار الناسِك وسَلاَّمة

سـلامة

كانت سَـلاَّمة مولَّدة من مولدات المدينة وبها نشـأت، وكانت من أحسن النسـاء وجها وأتمِّهن عقلا وأعذبهن حديثا، قرأت القرآن وروت الأشـعار، ثم تعلقت بالغناء، فتتلمذت فيه على معبد مغنى المدينة المشـهور، فمهرت، وجلست للغناء مع أختها ريا فى مجلس لهما بالمدينة، فكان الشعراء والناس يقصدون دارهما للسماع، ولم يبق بالمدينة شاعر إلا وشغفت قلبه حبا، وكان ممن أسرت لُبَّه الأحوص، وفيها يقول فى بعض أشعاره:

إذا أنت لم تعشقْ ولم تَدْرِ ما الهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جَلْمَدا
وإنـى لأهواهـا وأهـوَى لقـاءها ... كما يشتهى الصادى الشَّرابَ المبرَّدا

وكانـت تصفى الود كل من يتعلق بها، كمـا كانت تكثر من الرحيل إلى مكة، موقدة فى نفوس الناس هنا وهناك جذوة الإعجاب.

الناسك المكى

وكان بمكة ناسـك مشـهور بالتقوى والعبادة والزهد فى حطام الحياة، وكان من قرَّاء الذكر الحكيم ورواة الحديث النبوى، ليس له شـغل سـوى النسك حتى لقَّبه أهل بلدته بالقَسِّ، وهو عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَـمى. وتصادف أن سمع غناء سـلامة ذات يوم، فأظهر استحسـانه وافتتانه بـه، ورآه مولاها أمام داره، وهو يرهف سمعه، فدعاه أن يدخله إليها فيسمع منها، غير أنه أبى عليه

مظهرا تحرجه، فقال له: فإني أقعدك في مكان تسمع منها ولا تراها ولا تراك. فقال: أما هذا فنعم، فأدخله داره وأجلسه حيث يسمع غناءها. فلما طال سماعه لها قال له: هل لك في أن أخرجها إليك؟ فأبى. فلم يزل به حتى أخرجها. وأقعدها أمامه، وهي تضرب على العود وتغني. وسرعان ما فتن بها وفتنت به. وشاع ذلك في الناس حتى غلب عليها لقبه، إذ سموها سلامة القس.

غرام متصل

احتلَّ حب سلامة قلب القس، وأخذ يستأثر بكل مشاعره وعواطفه، حتى لقد حوله إلى شاعر غزل، ينظم الشعر، ويلقى به صاحبته ضارعا متوسلا، بل لقد تحول به إلى مايشبه شباكا يحوكها من حولها، وكلما تخلصت من خيوط تعثرت في أخرى. فإذا هي تقع في حبه كما وقع في حبها، وإذا هي تردد عليه كل ما ينظمه فيها. بل إنها لتتغنى به غناء عذبا ساحرا، فتضفي على جمال شعره جمال صوتها، وكأنما يتعانق العاشقان في الألفاظ والكلمات حين ينشد القس وتتغنى سلامة بمثل قوله:

سَلاَّمُ هل لى منكمُ ناصرُ أم هل لقلبى عنكمُ زاجرُ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهمُ اللائمُ والعاذرُ

وقوله:

أهابكِ أن أقول بذلتُ نفسى ولو أنى أطيع القلبَ قالا
حياءً منكِ حتى سُلَّ جسمى وشَقَّ علىَّ كتمانى وطالا

وطبيعي أن يذوى القس ويأخذه النحول والضمور، لأنه لا يحب حبا عاديا، فيه متاع وفرح وابتهاج، وإنما يحب حبا طاهرا نقيا كله حرمان، وكله ألم وضَنًى وشقاء، وكله وجد ليس بعده وجد، وكله عناء لا يشبهه عناء.

بين النسك والهيام

أخذت سلامة تمعن في حب القس، وكلما ظنّت أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى منه، تراءى لها في الخيال، وكأنه يحاول أن يبعدها عنه، ولكن ترى متى يتحول حب القس من هذه النار العاصفة بنفسه إلى شراب مصفى؟ وكانت تلقاه دائما ويتجاذبان أطراف الحديث، ومن حين إلى حين يقدم لها أشعاره من مثل قوله:

سَلاَّمُ ويحكِ هل تحببْن مَنْ ماتا أو تَرْجعين على المحزون ما فاتا

وقوله:

ألا قُلْ لهذا القلب هل أنت مُبْصِرُ وهل أنت عن سَلاَّمةَ اليومَ مُقْصِرُ

ولا يعدو ما بينهما من كلام النقاء العذريّ البريء، وإنه لينصرف دائما عن هذا الجمال المغرى والحسن الفاتن إلى النسك والعبادة، متخلصا من كل علاقة حسية وكل شائبة مادية.

وداع إلى الأبد

ملك حب القس على سلامة قلبها ومشاعرها، وكثيرا ما كانت تحدث نفسها أن تنعم بحبها وأن يضمها القس إلى صدره، ولكنها كانت كلما لقيته أكبرته وأجلته، وشعرت كأن حجبا صفيقة تقوم بينه وبينها، وإنها لهائمة به والهيام لا يعرف اليأس، وتخلو به ذات مساء، فتبادره بقولها: أنا والله أحبك، ويجيبها: وأنا والله أحبك. وتقول: وأنا أشتهي أن أعانقك وأقبلك، ويجيبها: وأنا أشتهي مثل ذلك، وتقول: فما يمنعك وإن الموضع لخال، ويجيبها: يمنعني أن أنعم بحبك في الدنيا وأشقى به في الآخرة فنغدو يوم

القيامة من الأخلاء الأعداء الذين ذكرهم الله عز وجل فى قوله: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. ويودعها وداع الأبد منشدا:

باتَتْ تُعلِّلنا وتحسب أننا ... فى ذاك أيقاظٌ ونحن نيامُ
حتى إذا سطع الصباحُ لناظرٍ ... فإذا بذلك بيننا أحلام

ويعود القس من أحلامه الكبيرة إلى ما كان عليه من الزهد والتقشف والعبادة والانصراف عن كل متاع فى الحياة. وتشدّ سلامة رحلها إلى المدينة حاملة لعاشقها العابد بين الأسى والندم مودة صافية وإخلاصا لا حد له.

❑❑❑

ذو الرُّمَّة ومَيَّة

أول الهوى

كان ذو الرمة من بنى عدى بن عبد مناة شاعرا من أظرف الناس حلو المنطق حسن الحديث، إذا كلمك لم تسأم كلامه. وكانت مية بنت سيد شريف من تميم يسمى طلبة بن قيس بن عاصم، وكانت خمرية اللون أقرب إلى القصر بدينة، إلا أن فى كلامها عذوبة.

وسبب تعلق ذى الرمة بها وأول ما كان من عشقه لها أن حَيَّه كان يقيم بالقرب من عشيرتها فى بعض نجعاته بشرقى الجزيرة العربية. وضلت لهم إبل فخرج هو وأخوه وابن عمه فى ابتغائها وطلبها. وبينما هم يسيرون رأوا خيمة كبيرة قد علا عمودها وأطنابها ومدت أوتادها وأسبابها، وكان قد أجهدهم العطش، فقال له أخوه وابن عمه: ائت الخيمة فاستسق لنا، فأخذ معه قربة صغيرة، وأتى الخيمة، فإذا عجوز جالسة فاستسقاها، فالتفتت وراءها وقالت: يا مى، فجاءتها فتاة تتمشط حاسرة الرأس قد أسبلت شعرها كأنه عناقيد النخل ووجهها يشف من خلاله، فقالت لها: اسق الغلام، فجاءت بماء خلط بلبن فسقته. ثم أخذت تملأ له قربته، وتقول له عابثة: لقد كلفك أهلك السفر على ما أرى من صغرك وحداثة سنك. ولها ذو الرمة بالنظر إليها، وأقبلت تصب الماء فى قربته والماء يذهب يمينا وشمالا، فأقبلت عليه العجوز وقالت له: يا غلام ألهتك مى عما بعثك أهلك له، أما ترى الماء يذهب يمينا وشمالا؟ فخجل ومضى لصاحبيه وقد علق بقلبه من حبها لاعج

عجـز عن إطفائه، وغرام كلَّ عن إخفائه. وأتـى أخاه وابن عمه، فحدثهما بها، وكيف تحرك لها قلبه، وهما يضحكان منه ويعجبان من أمره.

معاودة الزيارة

هام ذو الرمة بمية، وأصبح مستهام القلب بها يذكرها فى غدوه ورواحه، ولمـا طـال به هيامه عـاد إلى زيارتها فكانت تلقاه وترحـب به، ويتحادثان أحاديـث طويلة. وكانت دياره بعيدة عن ديارهـا. فكان يلومه بعض رفاقه على ما توجب له زيارتها من نصب ومشقة، فكان يقول:

وكنت إذا مـا جئت مَيًّا أزورهـا أرى الأرضَ تُطْوَى لى ويدنو بعيدُها
من الخَفِرات البيض ودَّ جليسُهـا إذا ما انقضت أحدوثةٌ لو تعيدُها

وظل يعاود زيارتها، وهى تسـتقبله، وتكرمه، وتحدثه، وقد عرفت أنها أسـرت لُبَّـه، ولم تكن تنتبذ به مكانا قصيا، بـل كانت تجلس إليه ومعها صواحبها يستمعن إلى حديثه وأشعاره.

يزورها مع صديق

وكان لذى الرمة صديق يسـمى عقبة بن مالك، فجاءه يوما وقال له: لقد عرفت أن الرجال فى عشيرة مية قد انتجعوا فهل تسعدنى فى زيارة إليها، ترافقنى فيها، فأجابه إلى بغيته. وركبا حتى أتيا حيها، وإذا بيتها خال قد خرج عنه أبوها وأهلها، فمالا إليها، ورآهما النساء، فتجمعن نحوهما ونحو بيت مية، وخرجت إليهما كأنها البدر السـافر، وهتف النسـوة: أنشدنا يا ذا الرمة من شـعرك وغزلك، فقال: أنشدْهنَّ يا عقبة. فنظر إليهن وأنشدهن من شعر ذى الرمة:

وقفتُ على ربعِ لميَّة ناقتى ... فما زلت أبكى عنده وأخاطبُهْ
وأسقيه حتى كاد مما أبثُّه ... تكلمنى أحجارُه وملاعبُهْ

فلما بلغ قوله:

فأسْبلتِ العينان والقلبُ كاتم ... بمغرورقٍ نمَّتْ عليه سواكبُهْ
هو الإلفُ قد حانَ الفراقُ ولم تَجُلْ ... مجاولها أسراره ومعاتبه

قالت ظريفة من النساء: لكن اليوم فلتجل. ومضى رفيقه، فلما انتهى إلى قوله:

وقد حلفتْ بالله ميةُ ما الذى ... أحدِّثها إلا لذى أنا كاذبُه
إذن فرمانى الله من حيث لا أرى ... ولا زال فى دارى عدوٌّ أحاربه

فقالت الظريفة لمىّ: قتلته، قتلك الله، فقالت مى: خف عواقب الله يا ذا الرمة. واسترسل الرفيق فى القصيدة إلى قول ذى الرمة:

إذا سرحتْ من حب مىٍّ سوارحٌ ... على القلب أمَّتْه جميعا عوازبه

فأعادت الظريفة على مى قولها: قتلته، قتلته. فقالت مى: ما أصحه وهنيئا له، فتنفس ذو الرمة نفسا حارًّا. ومضى رفيقه فى القصيدة إلى قوله:

إذا نازعتْك القولَ ميةُ أو بدا ... لك الوجه منها أو نَضَا الدرعَ سالبُهْ
فيا لك من خَدٍّ أسيلٍ ومنطق ... رخيمٍ وممزوجٍ تعلَّل شاربه

فقالت الظريفة ضاحكة: هذا القول قد تنازعه الشعراء والوجه قد بدا وقد واجهتها، فالتفتت إليها مية وقالت لها: ماذا تريدين؟ قاتلك الله. فقالت الظريفة ضاحكة: إن لكما لشأنا، وغمزت صواحبها قائلة: قمن بنا، فقمن وقام معهن رفيقه. ووقف بحيث يراهما، فجعل ذو الرمة يشكو لها وجده، وهى تقول له: كذبت؛ لست صادقا فيما تقول، وذرفت عيناه بالدموع، وأنشد:

ولما شكوت الحب كيما تُثيبنى ... بوجدىَ قالتْ إنما أنت تمزحُ
بِعاداً وإذْلالاً علىَّ وقد رأت ... ضمير الهوى قد كاد بالجسم يبرحُ
لئن كانت الدنيا علىَّ كما أرى ... تباريحَ من ذكراك فالموتُ أروحُ

ثم انفجر فى البكاء، فتساقطت قطراته على خديه كأنها حبال توشك أن تخنقه واستمر فى نشيده:

إذا خطرتْ من ذكر ميَّة خطرةٌ ... على القلب كادت فى فؤادىَ تجرحُ
هى البرء والأسقام والهمُّ والمنى ... موت الهوى فى القلب منى المبرِّح
تصرِّف أهواء القلوب ولا أرى ... نصيبك من قلبى لغيرك يمنح
وبعض الهوى بالهجر يمحى فَينْمحى ... وحبك عندى يستجدُّ ويربح

فقالت: كفى كفى، ورقت له، ودخلت خباءها، وجاءته بقارورة طيب وقلادة، فأهدتهما إليه ذكرى زيارته وشعره. وودعها ومضى إلى رفيقه، فركبا بعيرهما، وعادا إلى حيهما وهو ينشد:

لعمرك إنى يوم جَرْعاءِ مالك ... لذو عبرةٍ كلا تفيض وتخنقُ
وإنسانُ عينى يحسر الماء تارةً ... فيبدو وتاراتٍ يجمّ فيغْرِق

زواج مية

كان أبو ميَّة من أشراف العرب، فكان ذو الرمة يائسا من خطبتها، وتقدم إليها فتى موسر من عشيرتها فزفت إليه، ونقلت إلى حيه. ومر ذو الرمة مع صاحبين له بمنازلها التى كان يلقاها فيها وقد خرجت عنها. فقال يودع الآثار:

ألا فاسلمى يا دار ميّ على البِلَى ... ولا زال منهلاً بجرْعائك القَطْرُ

ثم نزل عن ناقته وأقبل على بعض المواضع يبكى فيها ويقبلها وقد وجد وجدا شديدا، فنزل إليه صاحباه يواسيانه ويقولان له: لقد تزوجتْ وأحرى بك أن تنساها، وكيف تفكر فيها ودونها من يحرسها ولن تستطيع الوصول إليها، فأنشد يحكى قولهما:

أمَا أنت عن ذكراك ميَّة مُقْصِرُ ولا أنت ناسى العهد منها فتذكرُ
تهيم بها ما تستفيق ودونها حجابٌ وأبوابٌ وسِترٌ مستَّرُ

وبكى بكاء شديدا، فأخذا يعزيانه ويقولان له: أمسك نفسك، فقال: إننى جلد وإن كان منى ما تريان، وانصرفوا.

الإلمام بدار مية

وألم ذو الرمة بدار ميَّة فى ليلة ظلماء، فأضافه زوجها، وطمع ذو الرمة فى ألاَّ يعرفه، فيدخله بيته ، فيراها ويكلمها. ولكن الزوج لم يلبث أن عرفه، فلم يدخله البيت وأخرج إليه طعامه وتركه بالعراء، فلما كان فى جوف الليل تغنى:

خليلىَّ عُدَّا حاجتى من هواكما من ذا يواسى النفسَ إلا خَليلها
ألِمَّا بمىَّ قبل أن تطرح النوى بنا مَطْرحا أو قبل بَيْن يزيلها
وإن لم يكن إلا تعلل ساعةٍ قليلا فإنى نافعٌ لى قليلها

فقطنت إليه مية. وأرسلت إليه جارية لها تسأله ألاَّ يتغنى حتى لا يتعرض له زوجها بسوء، ولكنه لم يستمع إلى قول الجارية، وتغنى بصوت عال:

أراجعةٌ يا مىُّ أيَّامنا الألى بذى الأَثْل أم لا ما لهن رجوع

فغضب زوجها، وقال لها: قومى فصيحى بهذا الرجل وسُبِّيه، وقولى له: أى الأيام كانت لى معك بذى الأثل، فقالت له: سبحان الله إنه ضيف، وما كل

ما يقوله الشعراء صحيح، فانتضى زوجها السيف وقال: والله لأضربنك به حتى آتى عليك أو تقولى له ما قلت لك، فصاحت به كما أمرها زوجها، فنهض على راحلته، فركبها وانصرف عنها مغضبا، وهو يقول:

أيا مَيُّ قد أشمتُّ بى ويحك العِدَا وقطَّعْتِ حبلا كان يا مىّ باقيا

موت ذى الرمة

وظل ذو الرمة وفيا لمية يتغنى باسمها وبالمنازل التى كان يراها فيها، ويبكى بكاء حارا يذرف فيه الدمع مدرارا. ومرض حتى أسقمه المرض وأضناه، وسرعان ما حضرته الوفاة، فقال لأهله: لا تدفنونى فى الوهاد ولكن ادفنونى فى كثبان مرتفعة واغرسوا حول قبرى بعض الأشجار. فلما مات صلوا عليه، ثم حملوه وحملوا معه بعض الأشجار، وحفروا له قبرا فى كثيب عال دفنوه فيه، ودثروه بذلك الشجر. وبكاه الحى وندبته النساء طويلا.

❑❑❑

العبَّاس بن الأحْنف وفَوْز

أول الهوى

كان العباس بن الأحنف شاعرا بغداديا غزلا حلوا مقبولا غزير الفكر عذب الحديث، محبوبا من هرون الرشـيد ووزرائه وقواده. وكان محمد بن المنصور ابن زياد الملقب بفتى العسكر يألفه ويعجب به، فكان يدعوه إلى منزله، وكان جوادا يختلف إلى مجلسـه الأدباء والشعراء، وكان له جوار كثيرون، وكانت من بينهم جارية ظريفة تسمى فوزا تروى الشعر وأخبار العرب، فكان محمد يحضرها مجالسـه؛ فوقعت فى قلب العباس بن الأحنف. وعرفت موضعها مـن قلبه. إذ كان يطيل النظر إليها، وكان إذا سـأله محمد بن المنصور عما أحدث من الغزل ينشد أشعاره وهو ناظر إليها. وكان يَكْنيها باسم ظلوم، لما كانت تصد عنه وتنفر منه وسأله يوما محمد ماذا أحدثت؟ فقال:

قالت ظَلـومُ سَجِيَّة الظـلم ما لى رأيتك ناحل الجسمِ
يا مَنْ رمى قلبى فأقصـده أنت العليم بموضع السهم

فأطراه محمد، وأظهر إعجابه واستحسانه. وقال له: زدنا يا عباس من غزلك الرقيق، ونظر إلى فوز فرآها تتكلف الإعراض والازورار عنه. فأنشد:

ألا تعجبون كمـا أعجـبُ حبيبٌ يُسـيئُ ولا أعتبُ
وأبغى رضـاه على سخطه فيأبـى علـىّ ويستصـعب
فياليت حظى إذا ما أسـأ تَ أنك ترضى ولا تغضب

فقال محمد بن المنصور: والله إن معشوقتك لقصرة، ولو كنت فى موضعك لقابلت إعراضها بإعراض، فقال على البديهة:

تحمَّلْ عظيمَ الذَّنب ممن تحبُّه وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالمُ
فإنك إلاّ تغفرِ الذنبَ فى الهوى يفارقْك من تهوى وأنفك راغم

فطرب محمد وقال للعباس: صدقت، وانتهى المجلس، فقام، وانصرف.

متابعة الشكوى

وفى مجلس ثان لمحمد بن المنصور أقبل العباس فسلم، وبدت فوز، فخفق قلبه، وجلست دون أن تحييه، وأخذ العباس فى الحديث، فسأله محمد، ما شأن صاحبتك وهل وصلتك؟ فأجاب:

واللهِ لو أن القلوب كقلبها ما رقَّ للولد الضعيف الوالدُ

وقال محمد: ترى من هى التى فتنتك وما مقدار حسنها؟ صفها لنا وأوجز، فقال على الفور:

لقد ملئتْ ماء الشبابِ كأنها قضيبٌ من الرَّيْحان رَيَّانُ أخضرُ

وخجلت فوز، ولم يلتفت محمد ولا فطن. وقال: مسكين أنت يا عباس، ولو عرفتها لكلمتها فى أمرك، ومن يعرف ربما كانت تصد عنك عتابا لا مللا ولا كرها، فأنشد:

لو كنتِ عاتبةً لسكَّن روعتى أملى رضاكِ وزرتُ غير مراقبِ
لكن مللتِ فلم تكن لى حيلةٌ صَدُّ الملول خلافُ صَدِّ العاتبِ

فقالت فوز: يا عباس ظن خيرا فربما كانت لا تستطيع لقاءك ولا أن تبادلك حبا بحب، فقال على الفور:

تمنَّى رجـــالٌ ما أحبُّوا وإنمـا تمنيت أن أشـكو إليها وتسـمعا
أرى كلَّ معشوقين غيرى وغيرها قـد استعذبا طـولَ الهوى وتمتَّعا

فقالت: أبلغك الله أمنيتك يا عباس. وكانت بعد ذلك تكاتبه وتراسله.

أرق على أرق

أصبح العباس كلفا بفوز لا يفارق مجلسها ومجلس سيدها، واشتد به كلفه فكان يبيت الليل مسهدا لا يغمض له جفن وطال عليه ذلك فأنشد:

قفـــا خبِّرانى أيهـا الرجـلان عن النوم إن الهجـرَ عنه نهـانى
وكيف يكون النومُ أو كيف طَعْمُهُ صِفا النومَ لى إن كنتما تصـفان

وشـكا إلى بعض أصحابه أنـه لا ينام، فتغامزوا عليـه، وقالوا: محب هائم، دع الحب يأتك النوم. وأمسى لا يلم به النعاس، فأنشد:

لـما رأيت الليل سـدَّ طريقـه عنِّى وعذَّبنى الظـلامُ الراكدُ
والنجـمُ فى كَبِد السماء كأنَّه أعْمـى تحـيَّر ما ديـه قـائدُ
ناديت مَنْ طرد الرُّقاد بصـدِّه عما أعالـج وهـو خِلْوٌ هاجـدُ
ياذا الذى صدع الفؤاد بهجره أنت البـلاء طريفـه والتالـدُ
ألقيت بين جفون عينى حرقةً فإلى متى أنا سـاهرٌ يا راقـدُ

وأرسل إليها هذه الأبيات فى رقعة وذيلها بقولهٰ

وسعى بهـا ناسٌ فقالوا إنهـا لهى التى تشـقى بها وتكابدُ
فجحدتهم ليكون غيرَك ظنُّهم إنى ليعجبنى المحب الجاحدُ

ولما وقفت على الرقعة قالت للرسـول: لقد بلغنى عنه أشعاراً يتغزل فيها باسمى، كأنه يريد أن يفضحنى عند سيدى، وإننى لا أستطيع أن ألقاه بعد تشهيره بى. ولما عرف جوابها أنشد:

لعمرك ما يستريح المحبُّ حتى يبوحَ بأسراره
وقد يكتم المرءُ أسراره فتظهر فى بعض أشعاره

لقاء

ودخل العباس يوما على محمد بن المنصور وفوز بين يديه ومعه حضور كثيرون، فقال له محمد: أنشد بعض ما قلت من غزلك يا عباس فإن غزلك رقيق يأخذ بمجامع القلوب، فأنشد:

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم فعندكم شهواتُ السمع والبصرِ
لا يضمر السوءَ إن طال الجلوسُ به عَفُّ الضمير ولكن فاسقُ النظر

فلم يبق أحد فى المجلس إلا طرب، وتعجب من حسن ما يأتى به من معان. وقال له محمد: زدنا مما قلت، حيَّاك الله، فقال:

راجعْ أحبَّتك الذين هجرتهم إن المُتَيَّمَ قَلَّما يتجنَّبُ
إن التجنُّب إن تطاول منكما دبَّ السلوّ له فعزَّ المطلب

فتبسمت له فوز، وقال السامعون: أحسنت ولله درك، وماذا بعد، فأنشد:

الحب أوَّلُ ما يكون لجاجةً تأتى به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا سلك الفتى لججَ الهوى جاءتْ أمورٌ لا تُطاقُ كبار
نزف البكاء دموع عينك فاستعِرْ عينا لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينَه تبكى بها أرأيتَ عينا للبكاء تُعار

فلم يبق أحد من الحاضرين إلا قال له: أنا أعيرك عينى، حاطك الله وحفظك، ونظر إلى فوز فغضت طرفها وخجلت، فأنشد:

قلبى إلى ما ضرَّنى داعى يُكثر أسقامى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوّى إذا كان عدوى بين أضلاعى

أسلمنى للحبِّ أشياعى ... لما سعى بى عندها الساعى
إن دام لى هجرك يا مالكى ... أوشك أن ينعانىَ الناعى

زيارة

رقَّت فوز للعباس فواعدته فى ليلة كان سيدها فيها غائبا، ولم يكد يصدق عينيه حين رآها، فوثب إليها وسلم عليها، وجلست فقالت له:

لابد للعاشق من وقفةٍ ... تكون بين الوصل والصَّرْم
يعتب أحيانا وفى عَتْبه ... إظهار ما يخفى من السُّقْم
إشفاقهُ داعٍ إلى ظنه ... وظنه داعٍ إلى الظلم
حتى إذا ما مُضَّه هجره ... راجَع من يهوى على رغم

ثم أردفت: إنى إنما صددت عنك، لما كنت أرى من عبرات تترقرق فى عينك، وأخشى أن يعرف أمرك محمد بن المنصور، فيمنعك من لقائى، فأنشد:

لا جَزَى اللهُ دمعَ عينىَ خيرا ... وجزى الله كل خير لسانى
نمَّ دمعى فليس يكتم شيئا ... ورأيت اللسان ذا كتمانِ
كنت مثل الكتاب أخفاه طىٌّ ... فاستدلّوا عليه بالعنوانِ

ومكثت قليلا، ثم استأذنت فى الانصراف، فأذن لها على مضض وهو ينشد:

وإنى ليرضينى قليلُ نوالكم ... وإن كنت لا أرضى لكم بقليلِ
بحرمة ما قد كان بينى وبينكم ... من الوصل إلا عُدْتُمُ بجميلِ

مكاتبة

وغابت عنه مدة لم يرها فيها، فهاج بلباله، وزادت به أشجانه، فكتب إليها رقعة، يقول فيها:

نام من أهـدى لىَ الأرقـا مستريحا زادنـى قَلقـا
لـو يبيت النـاسُ كلهـمُ بسـهادى بَيَّضَ الحدقـا
كان لى قلـبٌ أعيش بـه فاصطلى بالحب فاحترقا
أنـا لـم أُرْزَقْ مـودتكم إنمـا للعـبد مـا رُزِقـا

فلما قرأت الرسالة قالت للرسول: لقد ظلمنا العباس، وإنى لزائرته، وضربت موعدا للقائه.

موعـد

ظـل العباس ينتظر فـوزا، وكانت قد تأخرت بعـض الوقت، فداخلته الوساوس وهجمت عليه الهواجس وظن أنها لن توافيه، فبكى وأنشد:

أُحْـرَمُ منكم بما أقـول وقد نال به العاشقون من عشقوا
صرتُ كأنى ذُبالةٌ نُصِبت تضيئُ للناس وهْـى تحترقُ

ولم تمض إلا برهة يسـيرة حتى أقبلت، فقالت له: معذرة إنى تأخرت لشـغل عرض، ولم يكـن لى طاقة بتأخـيره. ثم أقبلت عليـه، وقالت له: أنشدنى بربك آخر ما نظمته فىَّ، فأنشد:

إن قال لم يفعل وإن سِيل لم يبذل وإن عوتب لـم يُعْتبِ
صـبٌّ بعصـيانى ولو قال لى لا تشـرب البارِدَ لم أشـرب
إليك أشكو ربِّ ما حلَّ بى من صَدِّ هذا المذنب المُغْضَبِ

فقالت لا عليك، والله ما أتأخر عنك من صد ولا هجر، إنما هو الشغل يحول بينى وبين لقائك وكلامك الحبيب إلى نفسى، فقال:

تعتلُّ بالشـغل عنا ما تكلمنـا الشغل للقلب ليس الشغل للبدنِ

فقالت: أتظننى أملك أمرى، إذن ما فارقتك، ولا وجدت فى نفسى هذا النقص لعدم لقياك، وتشاكيا الهوى ثم قامت، فمضت.

مرض فوز

وجَّه العباس رسولا إلى فوز، فعاد فأخبره أنها تجد صداعا وأنه رآها معصوبة الرأس، فأخذه الوجد بها ، وتمنى لو نقل الداء إلى رأسه فداء لها وأنشد:

عصبتْ رأسها فليت صُداعا ... قد شكته إلىّ كان براسى
ثم لا تشتكى وكان لها الأَجْـ ... ـرُ وكنتُ السقامَ عنها أقاسى
ذاك حتى يقول لى من رآنى ... هكذا يفعل المحبُّ المواسى

وبرئت مما ألم بها من مرض، ثم نكست وبلغه ما صارت إليه من النكس فقال:

إن التى هامت بها النفسُ ... عاودها من عارضٍ نكْسُ
كانت إذا ما جاءها المُبْتَلَى ... أبرأه من كفّها اللمسُ
وا بأبى الوجه المليح الذى ... قد عشقتْه الجن والإنس
إن تكن الحمَّى أضرَّتْ بهِ ... فربما تنكسفُ الشمسُ

شفاعة

وكان فى خلق العباس شدة فضرب غلاما له وحلف ليبيعنه، فمضى الغلام إلى فوز، فاستشفع بها إليه، فكتبت إليه فيه. فقال:

يا من أتانا بالشفاعاتِ ... من عند مَنْ فيه لجاجاتى
إن كنت مولاك فإن التى ... قد شفعت فيك مولاتى
إرسالها فيك إلينا لنا ... كرامةٌ فوق الكرامات

ورضى عنه ووصله وأعتقه.

لقاء ووداع

مضت مدة طويلة لا تلتقى فيها فوز بعباس، فقلق وجزع وظن أنها قد هجرته، فكتب إليها رسالة يقول فيها:

يا فوز يا منية عباسِ واحربا من قلبك القاسي
أسأت أن أحسنتُ ظنّى بكم والحزم سوء الظن بالناس
يقلقنى الشوق فآتيكمُ والقلب مملوءٌ من الياس

فقالت للرسول: إن الفرصة لا تواتينى، فعاد إليه وأخبره بما قالت، فكتب رسالة أخرى، يتفجع فيها على وصلها ويقول:

سلبتْنى من السرور ثيابا وكستْنى من الهموم ثيابا
كلما أغلقتْ من الوصل بابا فتحتْ لى إلى المنية بابا
عذّبينى بكل شيءٍ سوى الصدِّ فما ذقت كالصدود عذابا

ولما قرأت الأبيات رقت له وقالت للرسول: إنى زائرة له فى يوم كذا. وجاءت، فوثب إليها وجثا عند قدميها، يشكو تباريح حبه، فأمسكت برأسه ووضعت يدها على صدره، وقالت: ليتنى كنت لك، وبكت وبكى معها وأنشد:

ما أنس لا أنس يمناها معطَّفة على فؤادى ويسراها على راسى
وقولها: ليته ثوبٌ على جسدى أو ليتنى كنت سِرْبالا لعباس
أو ليته كان لى خمرا وكنت له من ماء مُزْنٍ فكنا الدهرَ فى كاس

وأقبلت عليه، فقالت له إن سيدى قد عزم على الحج، وسيأخذنى معه، فأستودعك الله، وقامت، فمضت لوجهها.

فوز تحج

أخذ العباس يرقب خروج فوز لعله يراها وهى راحلة إلى حج بيت الله الحرام، ورأى راحلتها تعدو، وهى خارجة إليها فبكى وأنشد:

يا ربِّ رُدَّ علينا من كان أُنْساً وزَيْنَا
من لا نُسَرُّ بعيشٍ حتى يكون لدينا

وغابت فوز عن عينيه، فجزع جزعا شديدا ومضى يسأل عن حجاج آخرين يحمِّلهم إليها رسالة له، ووجد بعض من يعرفه معتزما على أداء الفريضة، فكتب إليها:

أَزَيْنَ نساءِ العالمين أجيبى دعاءَ مشوقٍ بالعراق غريبِ
كتبت كتابى ما أقيم حروفه لشدة إعوالى وطول نحيبى
أَخُطُّ وأمحو ما أخطُّ بعبرة تَسُحُّ على القرطاس سَحَّ ذَنوبِ
أيا فوز لو أبصرتنى ما عرفتنى لطول نحولى بعدكم وشحوبى
وأنتِ من الدنيا نصيبى فإن أمت فليتك من حور الجنان نصيبى
وإنى لأستهدى الرياح سلامكم إذا أقبلتْ من نحوكم بهبوب
وأسألها حملَ السلام إليكمُ فإن هى يوما بلَّغتْ فأجيبى
أرى البَيْنَ يشكوه المحبون كلهم فيا ربِّ قَرِّبْ دارَ كل حبيب

وقدمت فوز من الحج وعلم عباس فأخذ ينشد فرحا مسرورا:

ألا قد قدمتْ فوز فقرَّتْ عينُ عباسِ
لمن بشَّرنى البشرى على العينين والراس

مغاضبة

ظل عباس ينتظر من فوز موعدا تضربه له بعد عودتها من الحج، ولكنها كانت انصرفت عنه إلى بعض شباب الجند، فكتب إليها:

أبكى الذين أذاقونى مودتهم حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

فلم ترد عليه ولا منَّتْه وعدا. وطال جفاؤها له، وعرف أنها أحبت سواه، فعزم على تركها، ثم راجعته نفسه، فكتب إليها يتوسل ويقول: الإدلال يدعو إلى الإملال، ورب حب انقلب إلى كره وهجر، وقال:

ما أرانى إلا سأهجر من ليس يرانى أقوى على الهجْرانِ
قد حدا بى إلى الجفاء وفائى ما أضرَّ الوفاء بالإنسانِ

فقالت للرسول: إنه تغير لما يسمع من قول الوشاة، وإنه يَذْكرنى بالسوء وأنى أحببت فتى من فتيان الجند، وهذا شأنى وحدى، فإن أحب أن يختلف إلى مجلس سيدى فليفعل، فلما سمع ذلك بكى وكتب إليها:

كتبتْ تلوم وتستردُّ مودتى وتقول لستَ لنا كعهد العاهدِ
فأجبتها ودموع عينى جَمَّةٌ تجرى على الخدَّين غير جوامدِ
يا فوز لم أهجركمُ لملالةٍ منى ولا لمقال واشٍ حاسدِ
لكننى جرَّبتُكم فوجدتُكمْ لا تصبرون على طعامٍ واحدِ

وتمادى بينهما الهجر.

موت العباس

وظل العباس يندب حبه حتى أضناه، فخرج مع غلام له إلى بعض الرياض، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه وهو متهالك ضعفا، وأنشأ يقول:

يا سقيم الجسم من محنهْ مفـردا يبكى على شَجَنـهْ
كلما جـــدّ البكـــاء بـــه دبَّت الأســقامُ فـى بدنـه

ثم أغمى عليه، فأقبل طائر فوقع على شـجرة، وجعل يغرد ففتح عينيه، ثم أنشأ يقول:

ولقد زاد الفـؤاد شَجاً طائرٌ يبكى على فَنَنِهْ
شـفَّه ما شفَّنى فبكى كلُّنا يبكى على سَكنه

ثم تنفس تنفسا مديدا فاضت فيه نفسه، فحمله غلامه إلى منزله، وخرج الجوارى يبكين عليه ويندبنه وبكاه أصدقاؤه ورفاقه أحرَّ بكاء.

❑❑❑

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة
تقـــديم	٥
الحـــب	٧
الحب العذرى	١٩
مَجْنون لَيْلى	٢٩
جَميل وبُثَيْنَة	٥١
قَيْس بن ذَرِيح ولُبْنَى	٧٣
عُرْوَة بن حِزام وعَفْراء	٩٥
كُثَيِّر وعَزَّة	١٠٣
تَوْبة ولَيْلى الأخْيليَّة	١١١
الصِّمَّة وريَّا	١١٩
مالِك وظَريفة	١٢٣
ابن أبى عمَّار الناسِك وسَلاَّمة	١٢٧
ذو الرُّمَّة وميَّة	١٣١
العبَّاس بن الأحْنف وفَوْز	١٣٧